وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة القادسية
كلية التربية
قسم التاريخ

أثر المرأة في المجتمع المملوكي في مصر ٦٤٨-٧٨٤م

بحث تقدمت به الطالبة

آمال سامي مخيف

الـــــى مجلس كلية التربية / قسم التاريخ وهو جزء من متطلبات نيل شهادة البكالوريوس في علوم التاريخ

اشـــراف

د: ورود حسين

1439 هـ 2018 م

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة القادسية
كلية التربية
قسم التاريخ

أثر المرأة في المجتمع المملوكي في مصر ٦٤٨-٧٨٤م

بحث تقدمت به الطالبة

آمال سامي مخيف

الـــــى مجلس كلية التربية / قسم التاريخ وهو جزء من متطلبات نيل شهادة البكالوريوس في علوم التاريخ

اشـــراف

د: ورود حسين

1439 هـ 2018 م

المقدمة:

من المعروف ان تاريخ المماليك يعود الى سنين طويلة الامد قبل مجيء العثمانين الى مصر على اثر مقتل اخر سلاطين المماليك وان تاريخ المماليك مليء بالاحداث السياسية الاجتماعية والاقتصادية والدينية وغيرها.

وقد تحدثت في هذا البحث عن مكانة المرأة وما كانت تتمتع به من مكانه عالية عند المماليك حيث تسلمت مناصب عديدة وكان لها الدور الفعال في مجرى الاحداث التي مرت على مصر اثناء حكم المماليك.

وكذلك تطرقت الى الصلاحيات والمناصب التي حصلت عليها المرأة في ذلك الوقت.

فأرتأيت ان اكتب بحثاً مفصلاً عن هذا الموضوع على الرغم من بعض المشاكل التي واجهتني اثناء كتابتي لهذا الموضوع ومنها عدم توفر المعلومة في المكتبات الخاصة والمكتبات العامة وان وجدت فهي لا تكفي لسد الغرض.

ومن اهم المصادر التي اعتمدت عليها هي تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام للمؤلف محمود سهيل طقوس، والمجتمع المصري عصر سلاطين المماليك للمؤلف سعيد عبد الفتاح عاشور، وروايات تاريخ العرب والاسلام للمؤلف جرجي زيدان

وكتبت بحثي هذا مفصلاً ومجزأ الى ثلاثة اقسام او مباحث ففي المبحث الاول تناولت المجتمع المملوكي وما هي الطبقات التي كانت اركان يتألف منها وكيف كانت تعيش هذه الطبقات ومن هي الاقرب الى السلطة وفي المبحث الثاني تطرقت الى مكانة المرأة وما هو دورها حيث كانت تمثل الدعامة الاساسية للمجتمع المملوكي اما في المبحث الثالث فخترت شجرة الدر ومن اين جاءت وبماذا لقبت وما هي اهم الاحداث التي وقعت اثناء تسلمها الحكم او فترة حكمها التي استمرت الى ثمانين يوماً وما هو سبب اختيارها من قبل المماليك وهم الابطال الصناديد الذين قام النصر على اكتافهم وكيف كانت نهايتها حيث قتلت ظرباً بالقباقيب ورميت من فوق القلعه وبقيت فترة من الزمن ثم دفنت في مكانها وهكذا انتهت حياتها المأساوية التي كانت هي السبب الرئيس في مقتلها والمتاعب التي واجهتها.

المبحث الاول

المجتمع المملوكي:

المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول مشتق من الفعل العربي((ملك)) ويقال عبد مملكه بفتح اللام وضمها. ويبدو ان هذا المعنى ماخوذ من القرأن الكريم حيث وردت عبارات ((ملكت ايمانكم)) و ((ملكت ايمانهم)) وملكت بميمنك اكثر من مرة.

ولم يلبث اللفظ ان اتخذ معنى اصطلاحي خاص في التاريخ الاسلامي فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض اللذين كانو يصبحون رقيقاً اما نتيجة الاسر في الحرب او الشراء من التجار الذين يجلبونهم الى البلاد الاسلامية حيث يطلبون اثماناً مرتفعة لبضاعتهم[1].

اما عن اصول المماليك فترجع أصولهم الى ايام السلطان قلاون حيث عزم على تكوين فرقه من المماليك سنة 1281م ليكون اعتماده عليها من دون الفرق المملوكية السابقة واطلق قلاون على هذه الفرقة اسم البرجية نتيجة الى ابراج القلعة التي اعزلهم بها وحرص السلطان قلاون على افراد هذه الفرقة من عناصر جديدة وظل السلطان قلاون يكثر من هذه الفرقة حتى بلغت عدتها في اواخر حكمه الى ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك غير ان لفظة الجركس لم يطلق على فرقة المماليك والبرجية الابعد سنوات عديدة[1].

---

[1]عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965،ص1

لم يكن هناك فارق كبير بين الشراكسه او المماليك البرجية واسلافهم الاتراك او المماليك البحرية[1].

وقد دعيت هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسه نسبة الى منشأ سلاطينهم فأنهم من الشعب الشركسي ويدعى ايضاً كركس او جركس او كرغن[1].

وهم لم ينشأوا في أسيا العليا انما جاءوا اليها من سيبيريا ونواحي بحرية يقال منذ القرن السادس الميلادي ثم هاجروا الى غرب بحر قزوين يحملون من بلادهم للا تجاربهم في جهات العالم فأقتنى منهم سلطان المماليك البحرية عددا واخراً فضلاً عن المماليك البحرية اقتداءاً بأسلافه وكانوا يستخدمونهم في مصالح الدولة فأرتقو فيها تبعاً لما خصتهم به الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت اليهم حماية الحصون والقلاع فجعلو سكناهم في الابراج فلقبو بالبرجية كما ذكرنا[1].

فما زالو يزدادون عدداً وقوة حتى تاقت نفوسهم الى تسلق كرسي الملك ارثاً لنسلهم، كان الخلفاء العباسين هم اول من استخدموا المماليك او الرقيق الابيض واعتمدوا عليهم في توطيد نفوذهم والمعروف ان الدولة العباسية قامت على اكتاف الفرس ولكن الخلفاء العباسين منذ ايام الخليفة المأمون اخذوا يخشون ازدياد نفوذ الفرس ويشكلون فيهم فلجأوا الى الاكثار من ازدياد نفوذ المماليك او شرائهم من الترك ليعتمدو عليهم في دعم نفوذهم وسلطانهم[1].

وظل المماليك يتوافدون الى مصر بشكل خاص لا ينقطع منذ العصور العباسية المتأخرة وقد اتاحت لهم التطورات نوعاً من الهيمنة العسكرية والسياسية حيث كان من

العسير عليهم ان لا يدخلو في شؤون الامارات الاسلامية ليخطوا بها طريقاً ونهجاً خاصاً في الحكم ويتركو بصمات واضحة في تاريخ منطقة الشرق الادنى بشكل عام وتاريخ مصر بلاد الشام بشكل خاص[1].

واضحى الملوك مع مرور الوقت الادارة العسكرية الوحيدة في مصر والشام وكان مصدرهم انذاك بلاد ما وراء النهر واشتهرت مدن سمر قند وفرغانه واشروسنه والشاش وخوارزم بأنها المصادر الرئيسية لتصدير الرقيق الابيض ذوي الاصول التركية وتم ذلك بأحد الطرق الثلاث:

1-الغراء
2-الاسر في الحرب
3- الهداية التي كان يؤديها ولاة الاقاليم مثل اقليم ما وراء النهر على شكل رقيق الى الخليفة ويبدوا ان الخليفة العباسي المعتصم هو اول خليفة عباسي اعتمد على العنصر التركي لقدرتهم القتالية المميزة حتى اضحى الحدس التركي يمثل دعامة الخلافة ايم حكمه، فأقناهم منذ ان كان اميراً وكان يرسل سنوياً من كان يشتري له منهم حتى اجتمع له في ايام المأمون زهاء ثلاثة الاف[1].

ثم تولى الخلافة في ظل ظروف من الصراع العنيف بين العرب من ناحية والفرس من ناحية اخرى بالاضافة الى اختلال في التوازن بين العناصر التي تكونت منها الخلافة العباسية[1].

اصبحت مصر مثلاً بارزاً لولايات الدولة العباسية التي شهدت تطور في ازدياد نفوذ المماليك حتى تملكو البلاد.

فطولون الذي اسس ابنه احمد الدولة الطولونية في مصر وكان مملوكاً تركياً الى الخليفة المأمون العباسي وعندما طنع احمد بن طولون في الاستقلال في مصر رأى انه يدعم استقلاله بقوة ضاربة من المماليك الديالمة والاتراك.

حتى ذكر ابن اياس ان المماليك أحمد بن طولون بلغوا اربع وعشرين ألف وفي زمن الخليفة المستنصر فصاعداً اكثر من الاعتماد على المماليك الترك وغير الترك وبذلك حافظوا على سياسة الطولونين في الاعتماد على المماليك وهكذا حتى قامت الدولة الى الايوبية لتفتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق الادنى والمماليك جميعاً[1].

دخلت مصر في حوزة صلاح الدين وبنى بها قلعه وجعلها كرسي ملكه ثم توارثها السلاطين من اولاده واخوانه واولادهم واحفادهم واقتسموا فيما بينهم ملك مصر والشام حتى اقضت السلطة بمصر سنة 637هـ الى الملك الصالح بن الكامل فأكثر من اقتناء المماليك الاتراك وجمع منهم.

نحو الف مملوك بني لهم قلعه في جزيرة الروضة اسكنهم فيها وجعلها سرير ملكه بدلاً من قلعة القاهرة ونقل لها اهله وحاشيته ومماليكه وفي ايامه محل الصليبيون على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وكان الملك مريضاً مما علم بأمر هذه الحمله حتى امر بالتجنيد والاستعداد للحرب لكف الصلبيين استولوا على دمياط بخيانة

من بعض اهلها وفرار بعض امرائها وتوفى الملك الصالح على اثر ذلك وخلفه ابنه غياث الدين طوران شاه[1].

والواقع ان العصر الذي اعقب وفاة صلاح الدين الايوبي سنة 1193 شهد ازدياد اعداد المماليك في مصر والشام ازدياداً كبيراً يسترعي الانتباه ذلك ان ورثه صلاح الدين من ابناءه واخوانه وابناء اخوانه أقتسموا فيما بينهم تلك الدولة الواسعة فصارت دمشق وحلب والكرك وبصرى وبعلبك وحماة وغيرها مراكز لامارات مهمة يحكمها بعض ابناء البيت الايوبي[1].

ولم يلبث ان دب الخلاف بينهم وبين بعض كما قامت المنازعات فيما بينهم من ناحية وابناء البيوت القديمة الاخرى التي ظلت تحكم اجزاء من الوطن الاسلامي في الشرق الادنى مثل ابناء البيت الزنكي في الموصل وسنجار فضلاً عن بني سلمان في خلاط من ناحية اخرى[1].

وفي وسط تلك الفوضى الضاربة التي عمت العلاقات بين مصر والشام عقب وفاة صلاح الدين كان لابد لكل امير من الامراء ان يكون لنفسه عصبيه يعتمد عليها في الاحتفاظ بأمارته او في تحقيق مطامعه على حساب امير اخر قريب او بعيد.

ولم يجد امراء المسلمين من ايوبين او غير ايوبين وسيلة يتقون بهما اوجه خصومهم سوى المماليك او الرقيق الابيض فأكثرو من شرائهم وعنو بتدريبهم وتنشأتهم ليكونو عده وسند لهم وهكذا شهدت سنوات الاخيرة من القرن الثاني كثرو النصف الاول

من القرن الثالث عشر ازدياد نفوذ المماليك في مختلف الامارات والدول الاسلامية في الشرق الادنى ومنها مصر[1].

وسرعان ما غدى لأولئك المماليك كلمة مسموعة في الاحداث والخلافات التي تعرضت لها المنطقة.

وخلاصة القول ان سلاطين المماليك وملوكهم دابو على شرار المماليك الصغار من الرقيق الابيض وخاصة في بلاد القفحكان وما وراء النهر واستخدم منهم قوة يعتمدون عليها في تثبيت حكمهم والوقوف على وجه خصومهم وقد ظل اولئك المماليك الاتراك اداة سهلة لينة في أيدي اسيادهم الايوبين طالما احتفظ اولئك السادة بقوتهم وجيشهم والى جموع المماليك يرجع الفظل بالذات الى احتفاظ خلفاء صلاح الدين وبخاصة العادل والكامل بتفوقهم الحربي في وجه خصومهم من الصليبين ومنافيهم من امراء المسلمين[1].

وعاش المماليك طبقة منفصلة ممتازة عن سائر سكان البلاد المصرية وساعد ذلك على قيام نظام طبقي وضحت فيه كل طبقة من طبقات المجتمع وضوحاً املاه مركزها ونوع نشاطها.

ولاحظ المعاصرون هذه الفوارق بين الطبقات فحاول المقريزي تقسيم مصر في عصره الى سبعة اقسام هم: اهل الدولة من المماليك واهل اليسار من التجار ومتوسط الحال من الباعة والسوقه واهل الفلح والفقهاء ويشملون طلاب العلم وارباب الصنائع والمهن وذوي الحاجة المسكنة[1].

ومن الواضح ان هذا التقسيم رغم شموله يغفل ارباب الوظائف الديوانية من المعلمين وغيرهم وكما يغفل الاعراب مع مالها تبين الطبقتين او الطائفتين من اهمية في عصر المماليك غير ان المقريزي جعل هذا التقسيم في معرض موضوع اقتصادي ولعله ادمج الاعراب في اهل الفلح كما ادمج ارباب الوظائف الديوانية في مختلف الطبقات التي عاشو فيها[1].

اما بيلوني الكربكي الذي عاش في مصر اواخر القرن الرابع عشر الميلادي بمعنى انه كان معاصر للمقريزي فقد قسم المجتمع في مصر الى ثلاث طوائف كبرى هي: الشعب المصري بمختلف فئاته الخاضعه لحكومة السلطان سياسياً ولنفوذ الخليفة دينياً وطائفة المماليك وهي عسكرية شعارها الاطماع والدسائس والانقلاب ثم طائفة البدو وهم الاعراب الذين لا يتركون فرصة تمر دون ان يخلقوا للحكومة والاهالي متاعب متنوعة.

ولابن خلدون تقيم معروف نصه ان ملك مصر في عصر المماليك ((انما هو سلطان ورعيته)) اي ان هناك طبقة حاكمة مسيطرة تمثل السادة من المماليك وطبقة من المحكومين المغلوبين على امرهم يمثلون اهل مصر جميعاً[1].

واتفق مع ابن خلدون في رأيه المؤرخين المحدثين لين بول الذي قسم سكان مصر في عصر المماليك الى طبقتين كبيرتين بينهما حواجز وسدود منيعه.

الاولى طبقة المماليك وعرضها بأنه اقلية عسكرية ممتازة والثانية بقية فئات الشعب الخاضعة وعليها فلاحة الارض ودفع الضرائب وقال ان الطبقة الثانية عاشت محرومة من كل نفوذ في شؤون الحكم سوى بعض الوظائف ذات الصيغة الدينية[1].

ولاشك ان في هذه العزلة التي عاش فيها المماليك اوجدت فجوة بين الحكام والمحكومين في مصر المملوكية مما ترك اثراً واضحاً في المجتمع المصري في ذلك العصر.

ذلك ان المصرين ظلو طول عصر المماليك لا يعنيهم شيء من امر الاحداث الكبرى الداخلية والخارجية التي احاطت بمجتمعهم وصبهم ما يشهدونه من مواكب حافلة او من منازعات صاخبة بين طوائف المماليك وما يترتب على ذلك النزاع من سقوط سلطان وقيام غيره.

وفيما عدى ذلك استمر الفلاح في حقله والتاجر في متجره والفقيه في مدرسته والواصل في مصنعه المنزلي ينفذون جميعاً مشيئة سادة البلاد من المماليك[1].

ومن الطبقات الاخرى الموجودة في مصر في عصر المماليك هم المعممون فهية فئة المعممين من ارباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والادباء والكتاب وتسميهم بعض المراجع اهل العمامة.

كما اطلق عليهم ارباب الاقلام ويميزهم عن غيرهم من الطوائف وخاصة ارباب السيوف من المماليك[1].

وقد امتاز المعممون لاسيما جماعة العلماء بميزات معينة طوال عصر المماليك ورغم ما تعرضو له احياناً من امتهان نتيجة لحقد طوائف المماليك ومن هذه الامتيازات:

نفوذهم في الدولة واحترام السلاطين واجلالهم لهم ومنها ما عاش فيه هؤلاء المعممون من سعة في الحياة نتيجة لما اغدقته الدولة عليهم من رواتب وحينا دليلاً على ذلك كله ما استأثر به المعممون من الوظائف الدينية والسياسية العليا مثل[1].

منصب قضاة القضاة الاربعة والجنسية والوزارة وغيرها ومنشأ هذه السمعة البسيطة في الحياة ان المماليك احسو دائماً بانهم اغراب من البلاد واهلها وانهم بحاجة الى دعامة يستندون اليها في حكمهم ويستعينون بها على ارضاء الشعب وظيفي انهم وجدو هذه الدعامة في فئة العلماء يحكم ماللدين ورجاله من قوة وسطوه النفوس وعلى ذلك نستيطع القول ان السبب الذي دفع بيبرس الى احياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة 659هـ هو السبب نفسه الذي املى عليه من سبقوه وتبعوه من سلاطين المماليك احترام العلماء واجلالهم لان بهم عرفوا دين الاسلام وفي بركتهم يعيشون.

ثم ان المماليك كما هو معروف لم يكن لهم نظام ثابت في وراثة الحكم ولكن عصائبهم يلعبون على الامر واحد بعد واحد كما قال ابن خلدون.

ولذلك وجب على الامير ان يطمع في الحكم ان يستميل هذه القوة العلماء ورجال الدين الى جانبه ليكتب تأيد الرأي العام في البلاد[1] .

اما احترام سلاطين المماليك للعلماء فهي كثيرة ومتعددة في المراجع المعاصره فهذ الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس يدخل على السلطان لاجين فلا يدعه السلطان يقبل الارض حسب العادة المتبعه وسيقول له ((اهل العلم منزهون عن هذا)).

ويجلبه بجواره على المقعد هذا السلطان يرقون اذا دخل عليه عالم او فقير انتصب له قائماً بل ان السلطان خثقدم لم ينس وهو يعاني الام الموت ان يقوم من فراشه اذا دخل عليه احد العلماء[1] .

ولا ننسى المماليك بصفه عامة دفاعهم عن الاسلام واهله ضد التتر فلقد ابلو بلاء حسناً وكانوا خيرون للاسلام والمسلمين في كل فترة من فتراة تأريخهم[1].

كذلك وجد سلاطين المماليك من حرص على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة او مرتين او اكثر كل اسبوع وقد بحثت في تلك المجالس المسائل والمشاكل العلمية والدينية التي تناقش فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء وكذلك نسمع عن بعض امراء المماليك وابنائهم في مصر انهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية بل تصدى بعضهم لامراء الطلبة والتدريس لهم[1].

اما عن مكانة المعممين في المجتمع المماليكي عامة فلم تقل عن مكانتهم عند سلاطين المماليك ذلك ان الناس اكرموا العلماء واضفوا عليهم مختلف القاب التقدير والتفخيم مثل ((فقيه زمانه)) و ((عالم عصره)) و ((انتهت اليه رياسة العلم)) و ((انتهت اليه رياسة المذهب)) وفي زمان الاسواق عند البيع والشراء واعتاد الناس ان

يقصوا العالم على انفسهم ولعل اقوى دليل على احساس الناس بمكانة العلماء انهم صاروا يقصدونهم لقضاء حوائجهم ويتوسلون بهم للشفاعة لهم عند اهل الدولة[1].

وهذا الاحترام التي حضى به العلماء في عصر المماليك جعلهم يعتدون بأنفسهم ومكانتهم ويعمدون في وجه الامراء والسلاطين[1].

اهتم المماليك كثيراً بالزراعة والصناعة والتجارة الى جانب الموسوعات العلمية فقد صبوا اهتمامهم بالتجارة بحيث اعطوا اموالهم للتجار حتى يشغلونها لهم في التجاره سراً في هذه الحالة اصبحوا اصحاب تجارة عالمية[1].

فقد اسهمت التجارة في بناء المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك فكانت طائفة التجار ومن المعروف ان مصر قامت بنشاط تجاري مهم وكبير بين الشرق والغرب في ذلك العصر مما ادى الى شراء التجار وجعلهم طبقة ممتازة الى حد بعيد[1].

وقد ادرك سلاطين المماليك هذه الحقيقة واحسوا بها ان طبقة التجار دون غيرها هي المصدر الاساسي الذي عمد السلاطين الى تقريب التجار منهم واصطفوا منهم اصحاباً وهكذا تمتع التجار بأحترام كبير ومكانة بارزة في مختلف المدن والبلاد المصرية على عصر سلاطين المماليك[1].

فأذا ارادوا مدح شخص قالوا عنه انه ((انه من بيت تجاره ووجاهه)) وفي دمياط ابيح للتجار في ذلك العصر من يسر ورخاء كما يبدو ذلك جلياً في قصص ألف ليله وليله ويحكى عن بعض التجار انه بنى دار فصرف عليها خمسين الف دينار.

وزين قاعاتها واروقتها بالرخام المثمن وزخرفها بمختلف النقوش والزخارف على انه يتضح من كلام الشعر ان كثرة الثروه في ايدي التجار جعلت الكثير منهم لا يحافضون على اداب الدين فيجلسون في المساجد قبل الصلوات ويتحادثون في لفو وغفلة كذلك يدعو الشعراني الى التواضع في الحج يلبس الثياب اللائقة ((لا كما يفعل التجار)) ولكن كثرة الثروه في ايدي التجار جعلهم دائماً مطمع سلاطين المماليك فقالوا في فرض الرسوم عليهم كما اكثروا من مصادرتهم ومن هذه الرسوم ما يؤخذ من التجار عند خروج الجند للغزو فأذا لاح خطر مفاجئ واحتاج السلطان الى الاموال لأعداد الجيوش فليس امامه في هذه الحالة سوى التجار ليقترض منهم ما يحتاج اليه بضمان وشهود[1].

كما حدث سنة 796 هـ او يصادر نصف اموالهم او ثلثها كما حدث سنة 803هـ أو ان يفرض عليهم مبلغاً معيناً يتعاونون في جمعه ودفعه في الحال كما حدث سنة 892هـ. وهكذا بلغ من قسوة هذه المطلوبات الغاشمة ان ادى بعض التجار على انفسهم ان يفسر حكم الله حتى يترجوا مما جم عليه من الغرامات والخيارات وتحاكم الظلمة فيهم[1].

ان ابتزاز اموال التجار الاجانب في مصر وذلك بفرض الغرامات الفادحة عليهم ادى الى تأخر التجارة في مصر[1].

ومن الفئات الاخرى التي تكون منها المجتمع المملوكي هي الجالية اليهودية فقد تظمنه المجتمع المصري في العصر المملوكي جالية يهودية متوسطة العدد فنجد ان برنارد يكتب بعد زيارته لمصر عند مطلع النصف الثاني من العهد المملوكي انه كان

في مصر حينذاك حوالي خمسة عشر الف يهودي يشتغلون بمختلف الحرف وخاصة التجارة وقد كان لليهود تحت الحكم المملوكي حرية التعبد في اماكن العبادة الخاصة بهم وممارسة شعائر مذهبهم[1].

بل واقامة احتفالاتهم الدينية بغض النظر عن وجودهم في اقليم اسلامي ما زال ذلك الاقليم يقع تحت سلطة المماليك ويذكر القلقشندي ان اليهود في مصر ينقسمون الى ثلاث طوائف هي:

الربانيون، القراءون والساحره وقد جرت العاده ان يكون الرئيس من طائفه الربانين دون غيرهم وله، الحكم على الطوائف الثلاث.

كما يذكر القلقشندي نسخة توضح برئاسة اليهود من اسنشاء الفاطمي محي الدين بن الظاهر تنص على ان الاشراف على الطائفة اليهودية يقع ضمن مسؤليات رئيس اليهود الذي كان عليه الاعتناء بشؤنهم الاجتماعية والفصل في قضاياهم القانونية طبقاً لما يقضيه القانون اليهودي[1].

ويبدو ان ثروة مصر واتساع تجارتهم في ذلك العصر اجتذب كثيراً من اليهود من القسطنطينية وبغداد ودمشق وعكا وصور وحلب والاندلس فضلاً عن البلاد الاوربية مثل فرنسا وايطاليا وغيرها كذلك يبدوا ان هؤلاء اليهود والذين استقروا في مصر صارت لهم سيطرة خطيرة.

على النشاط المعرفي والاعمال المالية وقد احتفظ اليهود في مصر بمعابدهم التي عددها المقريزي كما حافظوا على عوائدهم ونظمهم الموروثة وتولى زعامتهم رئيس

او حاخام اشرف عليهم بطوائفهم الثلاث الربانين والسامريين والقرائين وتمتع ذلك الرئيس بنفوذ ديني وقضائي كبير في مختلف المشاكل التي تنشأ فيما بينهم[1].

كما ان هناك الكثير من الكنائس اليهودية في القاهرة وبعبارة اخرى لقد عاش اليهود ضمن دولة صغيرة خاصة بهم داخل الدولة المملوكية ومن ثم وجهوا حياتهم وفق الاسلوب الذي يرونه وطبقاً للعادات التي يألفونها.

وهناك ايضاً رحاله اخر يناطق اهل الذمة في العهد المملوكي وهو الراهب يوحنا يثود الذي يذكر في كتابه بأنه كان يوجد اكثر من عشرة الاف يهودي في مصر يعيشون في احيائهم الخاصة ولهم كنائسهم واسواقهم كما يوجد اكثر من عشرة الاف مسيحي من الريان والاقباط الذين ملكو عدد كبير من الكنائس[1].

ويبدوا ان الانتعاش الاقتصادي والنشاط التجاري الذي تميزت به مصر المملوكية في تلك الفترة قد اغرى عدد كبير من اليهود للقدوم والاستقرار في مصر فقدموا من القسطنطينية وبغداد ودمشق وعكا وصور وحلب والاندلس كما قدمو كذلك من البلاد الاوربية مثل ايطاليا وفرنسا وغيرها من المناطق[1].

على النشاط المعرفي كذلك بيدو ان اليهود الذين اقامو في مصر نجحو في السيطرة التامة على الصفقات التجارية واعمال الصيرفه وكل ماله صلة بالنشاط المالي.

ومن الفئات الاخرى هي الجالية المسيحية ولابد لنا بداية الحديث عن الجالية المسيحية في المجتمع المصري في العصر المملوكي الى رهبان دير القدسية كاترين في جبل سيناء والذين اشارو اليهم الراهب يوحنا يثنود حينما تناول بالتفصيل رحلته الى جبل سيناء وزيارته لدير القديسة كاترين وقد سبق لنا دراسة وضع هؤلاء الرهبان في الدير وموقف الحكام المماليك منهم[3].

وقد تقسمت الجالية المسيحية الى ثلاث طوائف هم البصاقيه والاقباط والربان الذين كانو يشكلون اغلبية بين الطوائف المسيحية الثلاث واخيراً الملية الا ان اقل هؤلاء ذكراً في المصادر المعاصرة في الغرب هم البعاقية والذين اهملتهم كذلك الدراسات الحديثة للحركة الصليبية رغم وجودهم ضمن السلطنة المملوكية وكان البطرياك هو رئيس الجالية ومن اجل ان يعيش المسيحيون في سلام وامان في ذلك المجتمع الاسلامي فقد حرصو على تنفيذ شروط عهد الخليفة عمر بن الخطاب[6].

---

[2]عبد السيد، حكيم امين ، قيام دولة المماليك الثانية، ط2، القاهرة 1966، ص11-12

[3]حسن، علي ابراهيم ، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1995، ص232

[4]ماجد ، عبد المنعم ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الانجلوا المصرية، القاهرة (1964) ص68

[5]زيدان ، جرجي ، تاريخ مصر الحديث، ط2، مطبعة الدلال، القاهرة(1911) ص344

وقد اشتغل بعض الاقباط في ادارة مكاتب الحكومة في حين مارس بعضهم التجارة بينما عمل بعضهم الاخر في السلك الكهنوتي كأسقفة ومساوسة كما وجد منهم من عمل في حراثة الارض ومزاولة بعض الاعمال المنزلية في بيوت الاغنياء وعلى الرغم من اننا نقرأ قلياً عن طبيعة حياة الاقباط فأنه من المحتمل انهم مارسو مختلف[7].

انواع الحرف الى جانب خدماتهم في المكاتب الرسمية للدولة والحكومة وقد حافظ الاقباط على تقاليدهم الاجتماعية واغراضهم وتمسكوا بها.

كما احتفضوا بكنائسهم في القاهرة وباقي الاقاليم المصرية وكذلك حرصوا على تقديم العطايا والهديا للرهبان في الاديره والكنائس بالاضافة الى ذلك فرضت الكنيسة القطبية على تطبيق تقاليدها الدينية كما اعتنى كافة الاقباط خاصة في الوجه الفيلي بممارسة عاداتهم وحمايتها بل انهم استمرا في استعمال لغتهم القيطية فيما بينهم[9].

---

[6] المصدر نفسه، ص345

[7] زيدان،مصدر سابق، ص345

[8] طقوس، محمد سهيل ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط2، دار النفائس، (القاهرة، 648-923ه) 1250- 1517م، ص15-16

[9] طقوس، المصدر نفسه، ص15- 16

اما عن الحياة الدينية فالملاحظ ان مصر شهدت في عصر المماليك نشاطاً ديناً منقطع النظير وقد يكون السر في هذا النشاط الديني الكبير هو شعور المماليك انفسهم بأنهم اغراب عن البلاد واهلها مغتصبون للحكم والعرش من اصحابه الشرعين.

لذلك ارادو ان يتخذوا من الدين ورجاله ستار يخفي هذه الحقائق عن اعين المحكومين ويقربهم الى قلوب الشعب مادام المماليك مسلمين مؤمنون بالله ورسوله ويحرصون على اقامة شعائر الدين واحياء سنن الاولين ويعمرون مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً منهم اذا حكام صالحون ولا داعي للتفكير كثيراً في اصلهم وطريقة وصولهم الى الحكم[12].

وثمة ملاحظة اخرى هي ان جزء كبير من النشاط الديني في عصر المماليك كان موجهاً لخدمة المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي ذلك انه على الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين الايوبي ومن خلفه من سلاطين بني ايوب لمحاربة

---

(10) عاشور، مصدر سابق، ص28

(11) زيدان، روايات، ص15

(12) ماجد، نظم سلاطين المماليك ، ص65

الشيعة والتشيع في مصر إلا ان الكثير من آثار المذهب الشيعي ظلت قائمة في عصر المماليك[13].

وقد لجأ سلاطين المماليك الى استخدام العنف تليت الشيعة حتى ان الناس في ذلك العصر انهم كانوا اذا اراد ان يكيدوا لشخص دسو عليه من رماه بالتشيع فتصادر املاكه وتنهال عليه العقوبات والاهانة حتى يظهر التوبة من الرفض.

وفي الوقت نفسه حارب السلاطين المماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر فأمر السلطان الظاهر بيبرس 1267م- 665هـ بأشياع المذاهب السنية الاربعة وتحريم ما عداها كما امر بأن لا يولي فاطمي ولا تقبل شهادته احد ولا يرشح لاحدى وظائف الخطابة او الامامة او التدريس مالم يكف مقلد لاحد هذه المذاهب[15].

وثمة وسيلة اتخذها سلاطين بني ايوب واتبعهم فيها سلاطين المماليك لمحاربة المذهب الشيعي والحد من انتشاره في البلاد في انشاء المدارس وسبق وان تكلمنا عن

---

[13] المصدر نفسه، ص66

[14] طرخان، ابراهيم علي، مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة، (مكتبة النهضة ، 1999)، ط1، القاهرة، ص123

[15] عاشور،مصدر سابق، ص23

اهمية المدرسة من الناحية العلمية ولكن الحقيقة الكبرى لا ينبغي ان تغيب عن اذهاننا هي ان صلاح الدين عندما انشأ اولى المدارس في مصر انما استهدف ان تكون المدرسة قبل اي اعتبار اخر مركز لتدعيم المذهب او الفقه السني وقد راعى هذا المبدأ خلفاء صلاح الدين فأقامو المدارس واشترطوا ان تكون كل منها خاصة بتدريس مذهب او مذهبين من المذاهب الاربعة[18].

حتى كانت المدرسة التي انشأها السلطان الصالح نجم الدين ايوب سنة 1242م/ 640هـ هي اول مدرسة بنيت في القاهرة على المذاهب الاربعة الشافعي و المالكي و الحنفي والحنبلي واستمرت هذه المدرسة تؤدي رسالتها في خدمة السنة حتى القرن التاسع الهجري الخامس الميلادي على ايام المؤرخ تقي الدين المقريزي[19].

---

[16] عفيفي، امين ، تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث، ط3، المطبعة العربية، (القاهرة 1954)،ص 137

[17] طرخان، مصدر سابق، ص125

[18] عاشور، المجتمع المصري ، ص10-11

[19] عاشور، المصدر نفسه، ص18

ولم تكن المدارس هي المؤسسات الدينية الوحيدة التي اكسبت المماليك طبعه الديني الخاص بل شهد ذلك العصر اقامة مؤسسات اخرى عديدة مثل المساجد والزوايا وغيرها.

وان كل من المدرسة والجامع في ذلك العصر قاما بنفس الدور في خدمة الدين والعلم لكن الفارق بينهم هو ان المدرسة كما يتضح من اسمها استهدفت اولاً خدمة العلم وجاء نشاطها الديني ضمنياً عن طريق تدريس العلوم الدينية وبالعكس كان الهدف الاول من الجامع هو خدمة الدين واحياء شعائره[21].

ولكي تدرك مدى الضعف الذي كان عليه المسلمون قبل ان الى ربهم فأعلم ان التتري كان يلقي المسلم في بغداد ليس معه سيف فيقول له قف مكانك حتى احضر السيف لأقتلك فيبقى المسلم جامداً ذليلاً في مكانه حتى يأتيه التتري بالسيف فيقتله به.

لقد قاتل سيف الدين قطز قتالاً عظيماً وقاتل معه الامراء المماليك حتى النصر ووقف قطز يوم عين جالوت وقال لمن يلومه على ذلك خائفاً عليه انني كنت افكر في

---

[20] العريني، الباز، المماليك، ط2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (دمشق- 1967)، ص118

[21] المصدر نفسه، ص119

[22] عاشور، مصدر سابق، ص20

الجنة اما الاسلام فله رب لا يضيعه ولقد قام قطز بنفس الدور الذي قام به صلاح الدين الايوبي عرف الحقيقة واعلنها الى الناس[23].

بالاضافة الى هذه الاصناف فهناك فئات عديدة ومختلفة في المجتمع المملوكي مثل الباعة والسوقة والغائين والمكارين والمعدمين واشباه المعدمين والامصطلح الذي تستخدمه عادة المراجع المعاصرة للتعبير عن هذه الفئات مجتمعه هو لفظ العوام ولحقت بعض المراجع بالعوام طوائف البلاحية والحرافين والمشاعليه ويبدو استعمال هذه الالفاظ في المراجع المعاصرة انها تعني المعدمين واهل الفساد من الدهماء.

بالاضافة الى هذه الطبقات هنالك طبقات اخرى مثل الفلاحين والاقليات الاجنبية والصناع وارباب الحرب والاعراب وغيرها[25].

المبحث الثاني:

المرأة في المجتمع المملوكي:

لو اردنا التحدث عن مكانة المرأة في المجتمع المملوكي او عن السكان لوجدنا ان الطابع الاسري او الطابع العام للاسرة الاسلامية كان سائداً في عصر المملوكية

---

[23] شبيكه ،مكي ، تاريخ شعوب وادي النيل في القرن التاسع عشر، ط2، دار الثقافة، (بيروت-1965) ص58

[24] المصدر نفسه، ص61

[25] المصدر نفسه، ص64

لاسيما من حيث مركز الاب ونفوذه على زوجته وابنائه واحترام الزوجة والابناء لرب الاسرة وتطلبت ظروف الحياة والعمل بعض التلطيف من الزوجة ان يقضي الرجل معظم، نهاره في عمله خارج المنزل حتى اذا ما انتهى من عمله عاد عند غروب الشمس ليجد زوجته بدورها في انتضاره بعد ان قضت سحابة النهار في خدمة شؤون المنزل[28].

وكان الناس يتناولون طعامهم وهم جلوس على الارض مع مراعات آداب الطعام او آداب معينة منها الجلوس للأكل على الفخذ الايسر على ان يكون الاكل بثلاثة اصابع فقط مع مراعاته تصغير اللقمة وعدم الكلام اثناء الطعام[29].

وجرت العادة في ذلك العصر بالا تشارك الزوجة او الابناء رب الاسرة في طعامه بل للرجل طعام خاص وزبده خاصة وكوز خاص به.

---

[26]وجدي ، محمد فريد ، دائرة معارف القرن العشرين، ط1، (دار المعرفة، بيروت،(لبنان-1964) ص125

.

[27]المصدر نفسه، ص126

.

[28] عاشور، مصدر سابق، ص31

.

[29] ماجد، مصدر سابق، ص135

وكثرة الولائم المنزلية في ذلك العصر فكل مناسبة من مناسبات الفرح مقرونه بوليمة للاهل والاصدقاء وضعت لهذه المأدب المنزلية اداب وقواعد منها انه يجب على صاحب البيت ان يبدأ بالاكل ابناسا للضيوف ويعزم عليهم ولا يمضي في الاكل حتى اذا شبع الضيوف او كادوا ان يشبعون اخذ هو يأكل في انشراح.

وهناك لابد من وصف المرأة ومركزها وهي سواء في المجتمع المملوكي او المجتمع المصري وتمتعت بمكانة اسمى واهم ما يعتقد كثيرون فالمماليك انفسهم نظروا الى[31].

نسائهم نظرة ملؤها الاحترام فأضفوا عليهن الالقاب ولم يضنوا عليهن بالاموال الطائلة واحترام المصريون كذلك نسائهم وحافظوا على كرامتهن فأضفو عليهن الالقاب من باب التشريف مثل ست الخلق وست الحكام وست الناس الكل.

اذا اخرجت احداهن الى السوق وكان زوجها مقتدراً فأنه يحضر لها حماراً يقوده مكارى ويتبعها خادم.

---

[30] المصدر نفسه، ص136

[31] شبيكه، مصدر سابق،ص60

[32] المصدر نفسه،ص61

اما عن نصيب المرأة في الحياة العامة في عصر المملوكية فكان كبير حتى اننا نسمع عن نساء مثل شجرة الدر قدر لهن ان يلعبن دوراً خطيراً في سياسة الدولة العامة في ذلك العصر وكثيراً ما نقرأ عن زوجة سلطان توسطت بين امراء المماليك لتحل اشكالاً او توسطت لدى زوجها السلطان لرفع المظالم عن التجار وغيرهم من الطبقات الملظلومة[33].

ولم يقتصر نصيب المرأة في الحياة العامة على التدخل في بعض شؤون الدولة وانما شاركت ايضاً مشاركة فعالة في النشاط العلمي والديني في عصر المماليك ويحفظ التاريخ اسماء كثيرات منهن ممن اشتغلت في ذلك العصر بالنحو والفقه والحديث بل حفض الشعر وفي هذه الحالة دائبت كثيرات منهن على التنقل بين الشام ومصر ونشأت فقهاء ذلك العصر للسماع من كبار المحدثين والعلماء ولم يأنف بعض الفقهاء في عصر المماليك من الاعتراف بأنهم درسوا على بعض الشهيرات وسمعوا منهن وحصلوا على اجازات منهن.

وظهر في ذلك العصر اقبال بين النساء على مجالس العلم والدين فحرصت كثيرات منهن على الذهاب الى المساجد حيث يجلسن في مكان منفرد بعيد عن الرجال

---

(33) عاشور، المصد ر السابق، ص36-37

(34) عفيفي ،امين مصطفى ، تاريخ مصر الاقتصادي ، (المطبعة العربية، (القاهرة- 1954) ط3، ص21

لسماع الدروس الدينية واختار بعض النساء ان يسلكن طريق التصوف[35] فلبسن الخرق المرقعة كما لبسها المتصوفه من الرجال واطلق عليهن الشيخات.

اما عن نشاط المرأة فلاحظ بعض الرحالة الاوربين مثل سانوتو ان نساء مصر في عصر المماليك يتمتعن بقسط واخر من الحرية يسمح لهن بالتغيب عن منازلهن في اوقات كثيرة من النهار دون ان يتعرضن للوم ازواجهن فأذا لم يكن للمرأة حاجة في الذهاب الى السوق لشراء النساء يتناقلن اخبار البيوت والناس.

وكثيراً ما خرجت النساء الى الغرافات وشاطئ النيل وغيرها من اماكن اللهو للترويح عن النفس حيث ينكشف ستر الحياء ويختلط النساء بالرجال مما اثار غضب الفقهاء ورجال الدين فنادو بمنع النساء من الخروج على ذلك الوجه[38].

---

[35] المصدر نفسه، ص23

[36] الحجي، حياة ناصر، العلاقات بين سلطنة المماليك والمماليك الاسبانية، ط1، (الكويت-1980) ص4-5

[37] عاشور، مصدر سابق، ص41- 42

[38] الحجي ، مصدر سابق،ص8

هذا عن نساء المدن اما الفلاحة في الريف فظلت تقوم بدورها في جلب مياه الشرب من الترعة او النهر وخبز الخبز فضلاً عن رعاية اولادها ومساعدة زوجها في حقله[40].

ومن المعروف ان الامراء ومماليكهم لم يحاولوا الزواج من اهل البلاد من المصرين بل اختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم الاتي جلبهن التجار كذلك رسم السلاطين للقضاة والشهود ان لايعقد احد منهم قران مملوك من مماليك السلطان إلا بأذنه[41].

وقد اهتم المماليك بالاوضاع الحضارية من بناء المدارس والمساجد والعمائر حتى يعد عصرهم من ازهى عصور فن العمارة فمبدأ بناء البيوت انطلق من مبدأ منع الاختلاط والغيرة على النساء فتبنى البيوت الطابق الاول للرجال ويسمى اللاحك والسفلى للنساء ويسمى الحرملك ومدخل البيت ينحرف غرباً نحو دهليز ومنه حجرة

---

(39) الحجي، مصدر سابق، ص9

(40) عفيفي، مصدر سابق، ص78

(41) المصدر نفسه، ص80

(42) الحجي، مصدر سابق، ص61

الضيوف حتى لا يرى الداخل من في وسط البيت وكانت هنالك مداخل خاصة بالنساء فقط وكل هذا من اجل عدم اختلاط النساء بالرجال[44].

اما عن الحفلات التي اهتم بأحيائها المماليك فيمكن تقسيمها الى قسمين حفلات خاصة او عائلية وحفلات عامة او شعبية واول انواع الحفلات المنزلية ما يتعلق بأفراح الزواج وعمد كثر من المصريين الى المبالغة في ذلك النوع من الحفلات تقليداً لما اعتداد ان يفعله سلاطين المماليك في افراحهم[45].

وبدأ الزواج في ذلك الوقت بالخطابة فيقتصدها راغب الزواج لانها تعرف كل مليحه بمصر والقاهره وذلك لانها تتضاهر ببيع الطيب والبخور وغيرها من اللوازم النساء وبذلك يتاح لها دخول البيوت والاطلاع على اسرار الحريم فتستطيع ان تأتي للعريس بالعروس التي تناسبه ولم يكن للفتاة رأي في اختيار شريك حياتها بل ظل الرأي النهائي لوالدها وربما تشاركها امها فإذا تمت الخطبة جاء دور عقد القران في المسجد

---

(43) عاشور، مصدر سابق، ص41

(44) الحجي، مصدر سابق ، ص63

(45) المصدر نفسه، ص64

(46) عاشور، مصدر سابق، ص33

علـى ان ينصـرف اهـل العـريس بعـد كتابـة العقـد فـي موكـب كبيـر او صـغير حسـب الحال[48].

وجرت العادة وبعد عقد القران يأتي اعداد الشوار ونقله الى منزل العريس وجرت العادة ايضاً ان يكون في ذلك الشوار ثلاث دكك احدها من فضة والثانية من نحاس ابيض والثالثة من نحاس اصفر. وفي ليلة الزواج تقام وليمتان كبيرتان احدهما للنساء والاخرى للرجال وبعد الطعام يخرج العريس في موكب يحق به الاخل والاحباب قاصداً بين عروسه حيث يبدأ الحفل[49].

يختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء وكثير ما يتباها المدعون والمدعوات بتقديم النقوط الى المغنيات وتقديم الهديا من الشمع والخراف والسكر والارز وغيرها الى اصحاب العريس ومن الواضح ان هذه الهداية كانت تعتبر ديناً لابد من تقديمها على ان ترد في المناسبات المماثلة وفي نهاية الحفلة تنحني العروس اما العريس لتقبل يديه وتقدم له سيفاً تمسكه من طرفه فيتناوله العريس من مقبضه.

3

(47) المصدر نفسه، ص334

.

(48) الحجي، مصدر سابق، ص61

.

(49) عاشور، مصدر سابق، ص336-338

ومن الحفلات العائلية الاخرى حفلات الولادة فأذا وضعت الام مولودها اقل عليها النساء يزغردون مع ضرب الدفوف في حين تدوي المزامير والابواق على ابواب المنزل ويتضاعف الفرح في حالة اذا كان المولود ذكراً اذا يتعين على والده في هذه الحالة ان يقيم وليمة مولود ذكر يدعوا أليها الاهل والاحباب ويكثر فيها من عمل اصناف الطعام والحلوى.

اما يوم الاسبوع فيكون الاحتفال بع عظيماً اذا تلبس ام المولود الثياب الجديدة وتطوف بأنحاء الدار في موكب تحيط به الشموع والقابلة امامها تحمل المولود مع اطلاق البخور والقاء الملح وبعض الحبوب يميناً ويساراً لمنع العين والجاف واحتفلت العائلات كذلك بختان الطفل[51].

.

[50]الحجي، مصدر سابق، ص6

2

[51] عاشور، مصدر سابق ، ص246- 249

المبحث الثالث

شجرة الدر كنموذج لمكانة المرأة عند المماليك:

اضحى المماليك بعد مقتل قوارنشاه اصحاب الحل والعقد وكان من الطبيعي ان يطمع كل امير تتبوء عرش السلطة الشاغر لما وجد على الساحة السياسية الملوك الايوبيون خارج مصر والراجح انهم استاءوا من اقدام المماليك على قتل احد ملوكهم واستئثارهم بالسلطة ومن الطبيعي ان يرى كل منهم نفسه او في نفسه الشرعية لأن يلي السلطة بعد وفات تورانشاه.

واخيراً قرر المماليك حل المشكلة الناجمة عن شغور العرش فأختاروا شجرة الدر ام الخليل بن الصالح ايوب لتولي السلطة[54].

وشجرة الدر الملقبة بعصمة الدين ام خليل تركية الاصل وقيل انها ارمنية كانت جارية اشتراها الصالح نجم الدين ايوب وحظية عنده بمكانة عالية حتى اعتقها وتزوجها وانجبت منه ابنها خليل الذي توفي في 2صفر 648هـ (مايو 1250م) وتولت عرش

.
[52]الحجي، مصدر سابق، ص6

3
[53] عاشور، مصدر سابق ، ص175

.
[54] عاشور، مصدر سابق، 250

السلطة في مصر لمدة ثمانين يوماً بمبايعة من المماليك واعيان الدولة وبعد وفاة السلطان الصالح نجم الدين ايوب[55].

ويبدو ان عدة عوامل فرضت نفسها على الساحة السياسية في مصر حتى تم هذا الاختيار اهمها:

1-تنافس امراء المماليك على الزعامة.

2-تطلع الملوك الايوبين في بلاد الشام الى حكم مصر.

3-رجاحة عقل شجرة الدر واطلاعها على الامور الهامة في الدولة حيث كانت تشارك زوجها الراحل في ادارة امور السلطة.

كانت شجرة الدر جارية من اصل ارمني او تركي اشتراها الصالح ايوب وتزوجها لذلك فهي من ناحية الاصل والنشأة اقرب الى المماليك واعتبرها المقريزي اولى سلاطين دولة المماليك الاولى.

والواقع انه توجد ثلاثة اراء تتعلق بنهاية الدولة الايوبية في مصر وبداية دولة المماليك البحرية.

الاولى: يرى اصحاب هذا الرأي ان معظم توارثته هو اخر الملوك الايوبيون في مصر وان السلطنه او السلطانة شجرة الدر هي اولى السلاطين المماليك.

---

[55] رقلمه ،انور، المماليك في مصر، مطبعة المحله الجديدة، (القاهرة بدون سنة طبع)، ص45

الثاني: وهناك فئة من المؤرخين ترك ان شجرة الدر هي اخر السلاطين الايوبين في مصر بأعتبارها زوجة الصالح ايوب وقد زالت الدولة الايوبيه في البلد المذكور عندما تنازلت للمعز ايبك الذي اضحى اول ملك من الاتراك في الديار المصرية.

الثالث: يرى فريق من المؤرخين ان المماليك الاشرف موسى الذي نصبه المعز ايبك هو اخر الملوك الايوبين في مصر وكان في العاشرة من عمره ثم حجبه الملك المعز واستقل بالملك فأنقرض الدولة الايوبية من الديار المصرية[57].

قصة حياة شجرة الدر بفواصلها واحداثها المتنوعة صعب تخيلها حتى انها لو صنعت فيلم لاتهمه البعض ببعده عن الواقعية او انه مجرد ضرب من الخيال يستخف بعقل المشاهد فبعد ان كانت جارية تباع وتشتري ها هي تحتل عرش مصر وتصبح ملكة بل انها وضعت لوس التاسع اكبر قادات العالم في الاسر وتعقد معاهدة معه ولكن جنون السلطة والمال وعضمتهم جعلها تنسى انها امرأة وتفقد انسانيتها فملأها الشر وسيطر عليها حتى انها دبرت لقتل زوجها ولكن القدر كان لها بالمرصاد فلاقت نفس المصير.

---

(56) عاشور، مصدر سابق، ص22

(57) رقلمة، مصدر سابق، ص47

فقد كانت لها مكانة خاصة عند نجم الدين الايوب فبالرغم من جمالها فهي ايضاً شديدة الذكاء فكانت مع زوجها عندما تولى بلاد الشام وانتقلت معه الى مصر.

وعند وفاة ابنها صغيراً حزنت عليه حزناً شديداً وكانت ذا عقل وحزم وتدبير في شؤون البلاد عند سفر زوجها توفي السلطان نجم الدين ايوب كانت فيه القوات الصليبية تزحف اتجهيز القوات المصرية المرابطة بالمنصوره وكان خبر وفاة السلطان في ذلك الوقت كفيل بأن يقلل من عزيمة الجند وتضعف معنوياتهم فلجئت شجرة الدر الى حيلة وهي اخفاء خبر موت السلطان في ذلك الوظع وامرت بنقل الجثة سراً في سفينة الى قلعة الروضة بالقاهرة[60].

وكانت تدخل الطعام والادوية واذا سأل عليه قالت ان السلطان مريض وكانت الاوراق الرسمية تخرج يومياً وعليها توقيع السلطان[61].

---

[58] عاشور، مصدر سابق، ص175- 178

[59] عاشور، مصدر سابق ، ص 23

[60] الحجي، مصدر سابق، ص18

[61] الحجي، مصدر سابق، ص20

وقد تولت شجرة الدر ترتيب امور الدولة وادارة شؤون الجيش في ميدان القتال وعهدت للامير فخر الدين بقيادة الجيش وفي الوقت نفسه ارسلت الى تورانشاه ابن الصالح ايوب تحثه على القدوم فغادره حصن كيفا الى مصر ليتولى السلطنة بعد ابيه.

وفي الفترة ما بين موت السلطان الصالح ايوب ومجيء ابنه تورانشاه في 23 ذي القعدة 648هـ 27 فبراير 1250م وهي فترة تزيد على ثلاثة اشهر نجحت شجرة الدر بمهارة فائقة ان تمسك بزمام الامور وتقود دفة البلاد وسط الامواج المتلاطمة التي كادت تعصف بها ونجح الجيش المصري في رد العدوان الصليبي الحاق خسائر فادحة بالصليبين وحفظت السلطنة حتى تسلمها تورانشاه الذي قاد البلاد الى النصر.

بعد النصر تنكر السلطان الجديد شجرة الدر بدلاً من ان يحفظ لها جميلها بعث يتهددها ويطالبها بمال ابيه فكانت تخبره بأنها انفقته في شؤون الحرب وتدبير امور الدولة فلما اشتد عليها ذهبت الى القدس خوفاً من غدر السلطان وانتقامه ولم يكتف تورانشاه بذلك بل امتد خنقه ليشمل امراء المماليك اصحاب الفضل الاول في تحقيق النصر العظيم والحاق الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة وبدأ يفكر بالتخلص منهم[64].

---

(62) عاشور، مصدر سابق ، ص170

(63) رقلمة، مصدر سابق، ص47

(64) عاشور، مصدر سابق ، ص171

فقد اهمل تورانشاه الامراء الاكابر اهل الحل والعقد وقدم الارذال فضلاً عن انهماكه بالملذات فأتفق المماليك فضربه بيبرس بالسيف سنة 648 اثناء وليمة امامها لحم واصبح المماليك اصحاب السلطة الفعلية في البلاد[65].

باشرة السلطانة شجرة الدر سلطتها استناداً على امومتها على ابن متوفي من ابناء السلطان ايوب واعتماد تأييد المماليك الصالحية لها غير ان المسلمين لم يألفوا ان يتولى امرهم امرأة فضلاً عن حرص الايوبين على عدم ترك مصر تفلت من ايدهم فأقام المماليك اميراً منهم وهو ايبك التركماني في منصب السلطنة لما اشتهر به بينهم من التدين والكرم وجود الرأي[67].

وهناك رواية اخرى عن وفاته عندما طالب شجرة الدر بمال ابيه واخبرته بأنها انفقته في شؤون الحرب وهربت منه بعدها اخذت تدبير مؤامرة لقتله وقامت بالاتصال مع انصاره من المماليك المعادين لتورانشاه وامرتهم بقتله وفي معسكر في فارسكور هاجموه مما جعله يلقي نفسه في البحر من فوق برج عالي كانو قد اشعلو فيه النار ثم رموه بالسهم وهناك في عرض البحر لقى حتفه حريقاً جريحاً وايضاً غريقاً وقد قيل ان

---

(65) طقوس، مصدر سابق ، ص35

(66) المصدر نفسه، ص37

(67) طقوس، مصدر سابق ، ص35-36

جثته بقيت على شط النيل ثلاثة ايام حتى دفنت مكانها وبموته انتهى حكم الدولة الايوبية في مصر بعد حكم دام 81سنة ليبدأ بعد ذلك حكم المماليك وقد بايع الامراء السلطانة شجرة الدر في مصر 648هـ وفي هذا الاثناء كان الامراء المصريون يحتفلون بفشل الحملة حملة لويس التاسع على مصر وانهزامها وهكذا تولت شجرة الدر الحكم[69].

قد تعجب المرأ عندما يرى ان سلاطين المماليك تركوا انفسهم واختاروا شجرة الدر لتتولى شئون الحكم وهم الابطال الصناديد والقادة الذين مشى النصر في ركابهم وقد تفشى اسم شجرة الدر ونقش على السكة بالعبارة الاتية ((المعتصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل امير المؤمنين والجدير بالذكر ان شجرة الدر لم تكن اول امرأة في العالم الاسلامي فقد سبق ان تولت رضية الدين سلطنة دلهي واستمر حكمها اربع سنوات (634- 638هـ) الموافق 1236- 1240م) وحكمت اروى بنت احمد الصليحي من سلالة بنو صليح اليمن من تاريخ (492- 532هـ) الموافق (1098- 1138م)[71].

---

[68] عاشور، مصدر سابق، ص17

2

[69] المصدر نفسه، ص174

.

[70] عاشور، مصدر سابق، ص173

.

وقد خطب الشيوخ لشجرة الدر في المنابر وكذلك الخطباء وقد اشتهرت شجرة الدر بالدهاء حتى وصفها ابن اياس بأنها صعبة الخلق شديدة البأس ذات شهامة رائدة وحرمة واخره.

لم يكن الشعب المصري عنده فكرة ان تحكمه امرأة فشعرت بذلك فأخذت في نقض الظرائب وعملت الى التقرب الى اهل الدولة ومنهم الرتب والاقطاعات واتفقت مع لويس التاسع الذي كان اسيراً بتسليم دمياط ودفع فدية له ولمن معه من اسرى تقدر بثمانية الف دينار.

ويتعهد بعدم العودة مرة اخرى الى السواحل المصرية ولكن وجودها اثار ضجة في انحاء الجمهورية المصرية واعترفت الجماهير بأن تقوم بحكمه امرأة حتى بعثو للباب العالي قائلين ان كانت الرجال عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجالاً[74].

---

[71] العريني، مصدر سابق، ص45-47

.

[72] المصدر نفسه، ص49

.

[73] طقوس ، مصدر سابق، ص85

.

[74] المصدر نفسه، ص86

على الرغم من بعض الاعمال الداخلية والتسهيلات الا انها لم تأتي بنتيجة لأن المصرين عموماً لم يتقبلو بحكم او وجود امرأة في السلطنة والمسلمين لم يعتادوا في تأريخهم ان سلموا زمام امورهم لأمرأة[75].

ويبدو ان السلطانة شعرت بهذا الحرج فحرصت على ان لا تبرز اسمها مكشوفاً في المناشير فكانت توقع بأسماء وتعابير تمت لها بالصلة مثل ولدة الخليل وجعلت صيغة الدعاء على المنابر "احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ام الخليل المستعصمية صاحبت الملك الصالح ونقشت اسمها على السكة في ضيغة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الخليل امير المؤمنين

اما الخطباء فكانو يدعون لها في دعاء يوم الجمعة على المنابر بصيغة اللهم احفظ وادم سلطانة ست الرفيع والحجاب المنيع ملكة المسلمين والدة الملك خليل" وبعبارة احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ام خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح[78].

---

[75] العريني، مصدر سابق،ص65

[76] المصدر نفسه، ص66

[77] طقوس، مصدر سابق، ص40

وقد هدفت ان تضعي الصفة الشرعية على حكمها لذلك كانت تتقرب من الخلافة العباسية صيغاً وتتمسك بلقب "المستعصمية" اشارة الى صلتها بالخليفة العباسي المعتصم واحياناً تتمسك بلقب ام خليل الملك الصالح اشارة الى صلتها بالبيت الايوبي والملك الصالح نجم الدين ايوب بوجه خاص[79].

قامت المظاهرات في القاهرة وحدثت اضطرابات عديدة مناهضة لحكمها بعد ان اتهمها المعارضون بالتساهل مع الصليبين وحملوها مسئولية اطلاق سراح الملك الفرنسي لويس التاسع الذي ما ان اطلق سراحه حتى ذهب الى عكا ليواصل نشاطة الصليبي في بلاد الشام وعمد القيمون على الدولة الى غلق ابواب مدينة القاهرة للحلول دون تسرب انباء الاضطرابات الى الخارج[].

غير ان الظروف لم تكن مواتية لان تستمر شجرة الدر في الحكم طويلاً على الرغم مما ابدته من مهارة وحزم في ادارة شئون الدولة وتقربها الى العامة واغداقها الاموال والاقطاعات.

على كبار الامراء فلقيت معارضة شديدة داخل البلاد وخارجها وخرج المصريون في مظاهرة غاضبة تستنكر جلوس امرأة على عرش البلاد.

---

[78] طقوس، مصدر سابق ، ص40

.

[79] جرجي، زيدان، روايات تاريخ العرب والاسلام، شجرة الدر، ط1،(دار صادر للطباعة والنشر- 1998)، ص17

وعارض العلماء ولاية المرأة الحكم وقاد المعارضة العز بن عبد السلام لمخالفته جلوسها على العرش للشرع.

وفي الوقت نفسه ثارت ثائرة الايوبيون في الشام لمقتل تورانشاه واغتصاب المماليك للحكم بجلوس شجرة الدر على سدة الحكم ورفضت الخلافة العباسية في بغداد ان تقر صنيع المماليك فكتب الخليفة المعتصم اليهم ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير اليكم رجالاً.

ولم تجد شجرة الدر ازاء هذه المعارضة الشديدة بدلاً من التنازل عن العرش للامير عز الدين ايبك اتايك العسكر الذي تزوجته وتلقب باسم الملك المعز وكانت المدة التي قضتها على عرش البلاد ثمانين يوم واذا كانت شجرة الدر قد تنازلت عن الحكم والسلطان رسمياً وانزوت في بيت زوجها فأنها مارسته بمشاركة زوجها مسؤلية الحكم وخضع لسيطرتها فارغمته على حجر زوجته الاولى ام علي وحرمت عليه زيارتها هي وابنها وبلغ من سيطرتها على امور السلطان ان قال المؤرخ الكبير ابن تغري بروي انها كانت مستولية على ايبك في جميع احواله ليس له معها كلام[80].

واخيراً شعر ايبك بسيطرتها وكره ذلك فأنتفض اخيراً لنفسه وانقلب عليها وهددها بالزواج عليها مما جعلها تجن بجنونها وتفكر بالتخلص منه فبعثت برسالة للمناصر صلاح الدين ملك سوريا وحلب وتطلب منه قتل زوجها وتسليمه عرش مصر ولكن لم

---

[80] جرجي، مصدر سابق، ص28

يجبها وظن في الامر خدعة وعلم عز الدين ايبك بتفاصيل هذه الرسالة فعزم على قتلها ولكن شجرة الدر سبقته ودبرة مؤامرة لقتله فأخذت ترف له وتدلك عليه واكدت له انها سوف ترضخ لجميع مطالبه وسوف تكون طوع بيده وطلبت منه ان يقوم بزيارتها في قصرها بالقلعة[81].

وهناك وبين رياش وحرير وطعام لذيذ وشراب اثير كانت تحل اليه من الف ليلة وليلة واخيراً وعندما حاول التقرب منها طلبت منه ان يقوم بالغطس في المسبح حتى يزيل عنه عناء السفر واشعلت البخور الممزوج بعطر الصندل حتى وانه من كثافة الدخان امتنعت الروئية ووجوده بالمسبح انقض خمس من الغلمان على عز الدين ايبك وقتلوه في المسبح سنة 655هـ.

وفي الصباح اشاعت شجرة الدر ان عز الدين قد مات اثناء نومه لكن انصاره لم يصدقوا ودخلو القصر وحققوا من الامر حتى علموا بحقيقة الامر واعترف الغلمان الخمسة على ذلك وعلى شجرة الدر وتم اعدامهم ولاذت شجرة الدر بالفرار على يد بعض المماليك الى البرج الاحمر بالقلعة ومسك الحكم عز الدين علي ايبك الذي كان عمره خمس عشر سنة وعين قطز اثيابكاً له واول شيء امر به هو قتل شجرة الدر[82].

---

[81] ماجد ، مصدر سابق، 75

[82] ماجد ، مصدر سابق، 76

وقد اوكلت مهمة التخلص من شجرة الدر الى امرأة عز الدين ايبك التي امرت جواريها بقتلها بعد ايام قليلة والقو بها من فوق القلعة بعد ما تم القبض عليها ونقلت الى زوجة عز الدين ايبك التي طلبت مقتلها والتخلص منها بنفسها وكانت تحترق شوقاً للتخلص منها فهي سرقت منها زوجها وبعدته عنها فأمرت بضربها بالقباقيب الى ان ماتت وقامو برميها من فوق القلعة[1].

وهكذا انتهت حياتها على هذا النحو بعد ان كانت ملئ الاسماع والابصار وقد اثنى عليها المؤرخون المعاصرون لدولة المماليك فبقول ابن تغري بردي عنها وكانت خير دينة رئيسة عظيمة في النفوس ولها مآثر واوقاف على وجوه البر معروفة بها لقب السلطان[1].

وبعد موتها تركت في الخندق بقرب القلعة وهي لا ترتدي سوى سروال وقميص وبقيت بالخندق مدة ايام وثم دفنت بقبرها قرب المشهد النفيس بالقاهرة واحتفالاً بموتها صنعت زوجة ايبك حلوى من الرقاق واللبن ومحلاة بالسكر ووزعتها على الشعب والذي كان لا يعلم اسم لهذه الحلوى واطلقو عليها اسم ام علي نسبته لها ويقال ان شجرة الدر عندما ايقنت بموتها جمعت مجوهراتها ووضعتها في هاون من النحاس وقامت بأتلافها وبالرغم من ذلك فأن شجرة الدر كانت معروفة بأعمال الرد والعطف على الفقراء والمساكين.

وهكذا انتهت حياة شجرة الدر وكانت نهاية مأساوية وكانت هي السبب الرئيس فيها[1].

الخاتمة

من خلال ما تقدم نستطيع القول بأن عصر المماليك كان عصراً يحيط به الغموض بعض الشيء على الرغم من أنني لم اتحدث عن المماليك او عصر المماليك بشكل مفصل واوسع إلا انني وجدت هذا العصر كان عصراً ايجلبي اكثر من ما هو سلبي بالنسبة لمصر المملوكية وكان لهذا العصر دور كبير في مجرى الاحداث التي مرت بمصر.

فالمماليك كانو نوع من الرقيق الذين يجابونهم اثناء التجارة فأقتنى منهم سلاطين المملیك في مصر واشتروا منهم اعداداً وكذلك استخدم العباسيين المماليك في العصر العباسي واصبحوا يحرسون القلاع وقد سكنوا الابراج لذلك سمو بالبرجية وكان لهم تأثير على مصر من الناحية الايجابية.

اما عن المجتمع المصري فكان مرلف من طبقات عديدة اهمها المماليك واليهود والمسيح والاعراب والتجار والسلاطين والفلاحين والمعممين واصحاب الحرف والاقليات الاجنبية وكا هذه الطبقات لم تواجه اي صعوبات مثلما واجه طبقة الشيعة من مصاعب ومتاعب وعقوبات ومحاولة سلاطين المماليك التخلص منهم إلا انهم لم يستطيعوا.

وكذلك كان للمرأة دور كبير هي المجتمع المصري في عصر المماليك بحيث كانت تتمتع بصلاحيات واسعة ولها دور كبير في المجتمع المملوكي وهي كانت تشارك زوجها في اعمال البيت وخارج البيت إلا انها لم تشارك بالحروب وقد اعتلى بعضهن الحكم وتسلمت الحكم الفترة من الزمن بحيث لعباً دور كبير في الاحداث السياسية في

مصر ومن ابرزهن شجرة الدر التي كانت جارية اشتراها السلطان نجم الدين ايوب ثم اعتقها وتزوجها ثم انجبت له ولد اسمه خليل لذلك سميت او لقبت بأسم خليل المستعصمية ام خليل وقد استمرت في الحكم ثمانين يوماً كانت من اجمل ايام هو في روايتها الا انها لعب الشيطان في عقلها وفكرة بالتخلص من زوجها إلا انه احس بها وهربت الى القصر ثم طلبت منه ان يحضر الى القصر وحضر وكانت له انها سوف تلبي جميع مطالبه وطلبت منه ان يغطس بالمسبح ليذهب عنه عناء السفر وبالفعل تم ذلك واذا بخمسة اشخاص ينقضون عليه ويقتلونه وقالت انه توفى اثناء نومه ولكن انصاره لم يصدقو بل تحققو من الامر وعرفو حقيقة وتم القاء القبض على الاشخاص الخمسة واعترفوا عليها تم اعدامهم وكذلك شجرة الدر تم القاء القبض عليها وامرت ام علي التي هي زوجة زوجها بقتلها ضرباً بالقباقيب حتى توفية وتم رميها من فوق القلعة ودفنت في نفس المكان وهكذا انتهت حياة شجرة الدر التي كانت هي السبب الرئيس في مقتلها.

قائمة المصادر والمراجع

1- علي ابراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1995، ص232.

2-جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث، ط2، مطبعة الدلال، القاهرة، 1911، ص344.

3-.....، روايات تاريخ العرب والاسلام (شجرة الدر)، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، القاهرة، 1998، ص15.

4-محمد سهيل طقوس، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط2، دار النفائس، القاهرة، 648-923هـ/ 1250- 1517م، ص15-16.

5-سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965، ص2.

6-.....، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962، ص10-11.

7-.....، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965، ص157.

8-امين مصطفى عفيفي، تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث، ط3، المطبعة العربية، القاهرة، 1954، ص21.

9-حياة ناصر الحجي، العلاقات بين سلطنة المماليك والمماليك الاسبانية، ط1، الكويت، 1980، ص4-5.

10- محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ط1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ت، ص125.

11- الباز العريني، المماليك، ط2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، دم، 1967، ص45- 47.

12- مكي شبيكه، تاريخ شعوب وادي النيل في القرن التاسع عشر، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1965، ص2-9.

المقدمة:

من المعروف ان تاريخ المماليك يعود الى سنين طويلة الامد قبل مجيء العثمانين الى مصر على اثر مقتل اخر سلاطين المماليك وان تاريخ المماليك مليء بالاحداث السياسية الاجتماعية والاقتصادية والدينية وغيرها.

وقد تحدثت في هذا البحث عن مكانة المرأة وما كانت تتمتع به من مكانه عالية عند المماليك حيث تسلمت مناصب عديدة وكان لها الدور الفعال في مجرى الاحداث التي مرت على مصر اثناء حكم المماليك.

وكذلك تطرقت الى الصلاحيات والمناصب التي حصلت عليها المرأة في ذلك الوقت.

فأرتأيت ان اكتب بحثاً مفصلاً عن هذا الموضوع على الرغم من بعض المشاكل التي واجهتني اثناء كتابتي لهذا الموضوع ومنها عدم توفر المعلومة في المكتبات الخاصة والمكتبات العامة وان وجدت فهي لا تكفي لسد الغرض.

ومن اهم المصادر التي اعتمدت عليها هي تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام للمؤلف محمود سهيل طقوس، والمجتمع المصري عصر سلاطين المماليك للمؤلف سعيد عبد الفتاح عاشور، وروايات تاريخ العرب والاسلام للمؤلف جرجي زيدان وكتبت بحثي هذا مفصلاً ومجزأ الى ثلاثة اقسام او مباحث ففي المبحث الاول تناولت المجتمع المملوكي وما هي الطبقات التي كانت اركان يتألف منها وكيف كانت تعيش هذه الطبقات ومن هي الاقرب الى السلطة وفي المبحث الثاني تطرقت الى مكانة المرأة وما هو دورها حيث كانت تمثل الدعامة الاساسية للمجتمع المملوكي اما في المبحث الثالث فخترت شجرة الدر ومن اين جاءت وبماذا لقبت وما هي اهم الاحداث التي وقعت اثناء تسلمها الحكم او فترة حكمها التي استمرت الى ثمانين يوماً وما هو سبب اختيارها من قبل المماليك وهم الابطال الصناديد الذين قام النصر على اكتافهم وكيف كانت نهايتها حيث قتلت ظرباً بالقباقيب ورميت من فوق القلعه وبقيت فترة من الزمن ثم دفنت في مكانها وهكذا انتهت حياتها المأساوية التي كانت هي السبب الرئيس في مقتلها والمتاعب التي واجهتها.

المبحث الاول

المجتمع المملوكي:

المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول مشتق من الفعل العربي((ملك)) ويقال عبد مملكه بفتح اللام وضمها. ويبدو ان هذا المعنى ماخوذ من القرأن الكريم حيث وردت عبارات ((ملكت ايمانكم)) و ((ملكت ايمانهم)) وملكت بميمنك اكثر من مرة.

ولم يلبث اللفظ ان اتخذ معنى اصطلاحي خاص في التاريخ الاسلامي فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض اللذين كانو يصبحون رقيقاً اما نتيجة الاسر في الحرب او الشراء من التجار الذين يجلبونهم الى البلاد الاسلامية حيث يطلبون اثماناً مرتفعة لبضاعتهم[1].

اما عن اصول المماليك فترجع أصولهم الى ايام السلطان قلاون حيث عزم على تكوين فرقه من المماليك سنة 1281م ليكون اعتماده عليها من دون الفرق المملوكية السابقة واطلق قلاون على هذه الفرقة اسم البرجية نتيجة الى ابراج القلعة التي اعزلهم بها وحرص السلطان قلاون على افراد هذه الفرقة من عناصر جديدة وظل السلطان قلاون يكثر من هذه الفرقة حتى بلغت عدتها في اواخر حكمه الى ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك غير ان لفظة الجركس لم يطلق على فرقة المماليك والبرجية الابعد سنوات عديدة[1].

لم يكن هناك فارق كبير بين الشراكسه او المماليك البرجية واسلافهم الاتراك او المماليك البحرية[1].

وقد دعيت هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسه نسبة الى منشأ سلاطينهم فأنهم من الشعب الشركسي ويدعى ايضاً كركس او جركس او كرغن[1].

وهم لم ينشأوا في أسيا العليا انما جاءوا اليها من سيبيريا ونواحي بحرية يقال منذ القرن السادس الميلادي ثم هاجروا الى غرب بحر قزوين يحملون من بلادهم للا تجاربهم في جهات العالم فأقتنى منهم سلطان المماليك البحرية عددا واخراً فضلاً عن المماليك البحرية اقتداءاً بأسلافه وكانوا يستخدمونهم في مصالح الدولة فأرتقو فيها تبعاً لما خصتهم به الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت اليهم حماية الحصون والقلاع فجعلو سكناهم في الابراج فلقبو بالبرجية كما ذكرنا[1].

فما زالو يزدادون عدداً وقوة حتى تاقت نفوسهم الى تسلق كرسي الملك ارثاً لنسلهم، كان الخلفاء العباسين هم اول من استخدموا المماليك او الرقيق الابيض واعتمدوا عليهم في توطيد نفوذهم والمعروف ان الدولة العباسية قامت على اكتاف الفرس ولكن الخلفاء العباسين منذ ايام الخليفة المأمون اخذوا يخشون ازدياد نفوذ الفرس ويشكلون فيهم فلجأوا الى الاكثار من ازدياد نفوذ المماليك او شرائهم من الترك ليعتمدو عليهم في دعم نفوذهم وسلطانهم[1].

وظل المماليك يتوافدون الى مصر بشكل خاص لا ينقطع منذ العصور العباسية المتأخرة وقد اتاحت لهم التطورات نوعاً من الهيمنة العسكرية والسياسية حيث كان من العسير عليهم ان لا يدخلو في شؤون الامارات الاسلامية ليخطوا بها طريقاً ونهجاً

خاصاً في الحكم ويتركو بصمات واضحة في تاريخ منطقة الشرق الادنى بشكل عام وتاريخ مصر بلاد الشام بشكل خاص[1].

واضحى الملوك مع مرور الوقت الادارة العسكرية الوحيدة في مصر والشام وكان مصدرهم انذاك بلاد ما وراء النهر واشتهرت مدن سمر قند وفرغانه واشروسنه والشاش وخوارزم بأنها المصادر الرئيسية لتصدير الرقيق الابيض ذوي الاصول التركية وتم ذلك بأحد الطرق الثلاث:

4-الغراء
5-الاسر في الحرب
6- الهداية التي كان يؤديها ولاة الاقاليم مثل اقليم ما وراء النهر على شكل رقيق الى الخليفة ويبدوا ان الخليفة العباسي المعتصم هو اول خليفة عباسي اعتمد على العنصر التركي لقدرتهم القتالية المميزة حتى اضحى الحدس التركي يمثل دعامة الخلافة ايم حكمه، فأقناهم منذ ان كان اميراً وكان يرسل سنوياً من كان يشتري له منهم حتى اجتمع له في ايام المأمون زهاء ثلاثة الاف[1].

ثم تولى الخلافة في ظل ظروف من الصراع العنيف بين العرب من ناحية والفرس من ناحية اخرى بالاضافة الى اختلال في التوازن بين العناصر التي تكونت منها الخلافة العباسية[1].

اصبحت مصر مثلاً بارزاً لولايات الدولة العباسية التي شهدت تطور في ازدياد نفوذ المماليك حتى تملكو البلاد.

فطولون الذي اسس ابنه احمد الدولة الطولونية في مصر وكان مملوكاً تركياً الى الخليفة المأمون العباسي وعندما طنع احمد بن طولون في الاستقلال في مصر رأى انه يدعم استقلاله بقوة ضاربة من المماليك الديالمة والاتراك.

حتى ذكر ابن اياس ان المماليك أحمد بن طولون بلغوا اربع وعشرين ألف وفي زمن الخليفة المستنصر فصاعداً اكثر من الاعتماد على المماليك الترك وغير الترك وبذلك حافظوا على سياسة الطولونين في الاعتماد على المماليك وهكذا حتى قامت الدولة الى الايوبية لتفتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق الادنى والمماليك جميعاً[1].

دخلت مصر في حوزة صلاح الدين وبنى بها قلعه وجعلها كرسي ملكه ثم توارثها السلاطين من اولاده واخوانه واولادهم واحفادهم واقتسموا فيما بينهم ملك مصر والشام حتى اقضت السلطة بمصر سنة 637هـ الى الملك الصالح بن الكامل فأكثر من اقتناء المماليك الاتراك وجمع منهم.

نحو الف مملوك بني لهم قلعه في جزيرة الروضة اسكنهم فيها وجعلها سرير ملكه بدلاً من قلعة القاهرة ونقل لها اهله وحاشيته ومماليكه وفي ايامه محل الصليبيون على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وكان الملك مريضاً مما علم بأمر هذه الحمله حتى امر بالتجنيد والاستعداد للحرب لكف الصلبيين استولوا على دمياط بخيانة من بعض اهلها وفرار بعض امرائها وتوفى الملك الصالح على اثر ذلك وخلفه ابنه غياث الدين طوران شاه[1].

والواقع ان العصر الذي اعقب وفاة صلاح الدين الايوبي سنة 1193 شهد ازدياد اعداد المماليك في مصر والشام ازدياداً كبيراً يسترعي الانتباه ذلك ان ورثه صلاح الدين من ابناءه واخوانه وابناء اخوانه أقتسموا فيما بينهم تلك الدولة الواسعة فصارت دمشق وحلب والكرك وبصرى وبعلبك وحماة وغيرها مراكز لامارات مهمة يحكمها بعض ابناء البيت الايوبي[1].

ولم يلبث ان دب الخلاف بينهم وبين بعض كما قامت المنازعات فيما بينهم من ناحية وابناء البيوت القديمة الاخرى التي ظلت تحكم اجزاء من الوطن الاسلامي في الشرق الادنى مثل ابناء البيت الزنكي في الموصل وسنجار فضلاً عن بني سلمان في خلاط من ناحية اخرى[1].

وفي وسط تلك الفوضى الضاربة التي عمت العلاقات بين مصر والشام عقب وفاة صلاح الدين كان لابد لكل امير من الامراء ان يكون لنفسه عصبيه يعتمد عليها في الاحتفاظ بأمارته او في تحقيق مطامعه على حساب امير اخر قريب او بعيد.

ولم يجد امراء المسلمين من ايوبين او غير ايوبين وسيلة يتقون بهما اوجه خصومهم سوى المماليك او الرقيق الابيض فأكثرو من شرائهم وعنو بتدريبهم وتنشأتهم ليكونو عده وسند لهم وهكذا شهدت سنوات الاخيرة من القرن الثاني كثرو النصف الاول من القرن الثالث عشر ازدياد نفوذ المماليك في مختلف الامارات والدول الاسلامية في الشرق الادنى ومنها مصر[1].

وسرعان ما غدى لأولئك المماليك كلمة مسموعة في الاحداث والخلافات التي تعرضت لها المنطقة.

وخلاصة القول ان سلاطين المماليك وملوكهم دابو على شرار المماليك الصغار من الرقيق الابيض وخاصة في بلاد القفحكان وما وراء النهر واستخدم منهم قوة يعتمدون عليها في تثبيت حكمهم والوقوف على وجه خصومهم وقد ظل اولئك المماليك الاتراك اداة سهلة لينة في أيدي اسيادهم الايوبين طالما احتفظ اولئك السادة بقوتهم وجيشهم والى جموع المماليك يرجع الفظل بالذات الى احتفاظ خلفاء صلاح الدين وبخاصة العادل والكامل بتفوقهم الحربي في وجه خصومهم من الصليبين ومنافيهم من امراء المسلمين[1].

وعاش المماليك طبقة منفصلة ممتازة عن سائر سكان البلاد المصرية وساعد ذلك على قيام نظام طبقي وضحت فيه كل طبقة من طبقات المجتمع وضوحاً املاه مركزها ونوع نشاطها.

ولاحظ المعاصرون هذه الفوارق بين الطبقات فحاول المقريزي تقسيم مصر في عصره الى سبعة اقسام هم: اهل الدولة من المماليك واهل اليسار من التجار ومتوسط الحال من الباعة والسوقه واهل الفلح والفقهاء ويشملون طلاب العلم وارباب الصنائع والمهن وذوي الحاجة المسكنة[1].

ومن الواضح ان هذا التقسيم رغم شموله يغفل ارباب الوظائف الديوانية من المعلمين وغيرهم وكما يغفل الاعراب مع مالها تبين الطبقتين او الطائفتين من اهمية

في عصر المماليك غير ان المقريزي جعل هذا التقسيم في معرض موضوع اقتصادي ولعله ادمج الاعراب في اهل الفلح كما ادمج ارباب الوظائف الديوانية في مختلف الطبقات التي عاشو فيها[1].

اما بيلوني الكربكي الذي عاش في مصر اواخر القرن الرابع عشر الميلادي بمعنى انه كان معاصر للمقريزي فقد قسم المجتمع في مصر الى ثلاث طوائف كبرى هي: الشعب المصري بمختلف فئاته الخاضعه لحكومة السلطان سياسياً ولنفوذ الخليفة دينياً وطائفة المماليك وهي عسكرية شعارها الاطماع والدسائس والانقلاب ثم طائفة البدو وهم الاعراب الذين لا يتركون فرصة تمر دون ان يخلقوا للحكومة والاهالي متاعب متنوعة.

ولابن خلدون تقيم معروف نصه ان ملك مصر في عصر المماليك ((انما هو سلطان ورعيته)) اي ان هناك طبقة حاكمة مسيطرة تمثل السادة من المماليك وطبقة من المحكومين المغلوبين على امرهم يمثلون اهل مصر جميعاً[1].

واتفق مع ابن خلدون في رأيه المؤرخين المحدثين لين بول الذي قسم سكان مصر في عصر المماليك الى طبقتين كبيرتين بينهما حواجز وسدود منيعه.

الاولى طبقة المماليك وعرضها بأنه اقلية عسكرية ممتازة والثانية بقية فئات الشعب الخاضعة وعليها فلاحة الارض ودفع الضرائب وقال ان الطبقة الثانية عاشت محرومة من كل نفوذ في شؤون الحكم سوى بعض الوظائف ذات الصيغة الدينية[1].

ولاشك ان في هذه العزلة التي عاش فيها المماليك اوجدت فجوة بين الحكام والمحكومين في مصر المملوكية مما ترك اثراً واضحاً في المجتمع المصري في ذلك العصر.

ذلك ان المصرين ظلو طول عصر المماليك لا يعنيهم شيء من امر الاحداث الكبرى الداخلية والخارجية التي احاطت بمجتمعهم وصبهم ما يشهدونه من مواكب حافلة او من منازعات صاخبة بين طوائف المماليك وما يترتب على ذلك النزاع من سقوط سلطان وقيام غيره.

وفيما عدى ذلك استمر الفلاح في حقله والتاجر في متجره والفقيه في مدرسته والواصل في مصنعه المنزلي ينفذون جميعاً مشيئة سادة البلاد من المماليك[1].

ومن الطبقات الاخرى الموجودة في مصر في عصر المماليك هم المعممون فهية فئة المعممين من ارباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والادباء والكتاب وتسميهم بعض المراجع اهل العمامة.

كما اطلق عليهم ارباب الاقلام ويميزهم عن غيرهم من الطوائف وخاصة ارباب السيوف من المماليك[1].

وقد امتاز المعممون لاسيما جماعة العلماء بميزات معينة طوال عصر المماليك ورغم ما تعرضو له احياناً من امتهان نتيجة لحقد طوائف المماليك ومن هذه الامتيازات:

نفوذهم في الدولة واحترام السلاطين واجلالهم لهم ومنها ما عاش فيه هؤلاء المعممون من سعة في الحياة نتيجة لما اغدقته الدولة عليهم من رواتب وحينا دليلاً على ذلك كله ما استأثر به المعممون من الوظائف الدينية والسياسية العليا مثل[1].

منصب قضاة القضاة الاربعة والجنسية والوزارة وغيرها ومنشأ هذه السمعة البسيطة في الحياة ان المماليك احسو دائماً بانهم اغراب من البلاد واهلها وانهم بحاجة الى دعامة يستندون اليها في حكمهم ويستعينون بها على ارضاء الشعب وظيفي انهم وجدو هذه الدعامة في فئة العلماء يحكم ماللدين ورجاله من قوة وسطوه النفوس وعلى ذلك نستيطع القول ان السبب الذي دفع بيبرس الى احياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة 659هـ هو السبب نفسه الذي املى عليه من سبقوه وتبعوه من سلاطين المماليك احترام العلماء واجلالهم لان بهم عرفوا دين الاسلام وفي بركتهم يعيشون.

ثم ان المماليك كما هو معروف لم يكن لهم نظام ثابت في وراثة الحكم ولكن عصائبهم يلعبون على الامر واحد بعد واحد كما قال ابن خلدون.

ولذلك وجب على الامير ان يطمع في الحكم ان يستميل هذه القوة العلماء ورجال الدين الى جانبه ليكتب تأيد الرأي العام في البلاد[1] .

اما احترام سلاطين المماليك للعلماء فهي كثيرة ومتعددة في المراجع المعاصره فهذ الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس يدخل على السلطان لاجين فلا يدعه السلطان يقبل الارض حسب العادة المتبعه وسيقول له ((اهل العلم منزهون عن هذا)).

ويجلبه بجواره على المقعد هذا السلطان يرقون اذا دخل عليه عالم او فقير انتصب له قائماً بل ان السلطان خثقدم لم ينس وهو يعاني الام الموت ان يقوم من فراشه اذا دخل عليه احد العلماء[1] .

ولا ننسى المماليك بصفه عامة دفاعهم عن الاسلام واهله ضد التتر فلقد ابلو بلاء حسناً وكانوا خيرون للاسلام والمسلمين في كل فترة من فتراة تأريخهم[1].

كذلك وجد سلاطين المماليك من حرص على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة او مرتين او اكثر كل اسبوع وقد بحثت في تلك المجالس المسائل والمشاكل العلمية والدينية التي تناقش فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء وكذلك نسمع عن بعض امراء المماليك وابنائهم في مصر انهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية بل تصدى بعضهم لامراء الطلبة والتدريس لهم[1].

اما عن مكانة المعممين في المجتمع المماليكي عامة فلم تقل عن مكانتهم عند سلاطين المماليك ذلك ان الناس اكرموا العلماء واضفوا عليهم مختلف القاب التقدير والتفخيم مثل ((فقيه زمانه)) و ((عالم عصره)) و ((انتهت اليه رياسة العلم)) و ((انتهت اليه رياسة المذهب)) وفي زمان الاسواق عند البيع والشراء واعتاد الناس ان يقصوا العالم على انفسهم ولعل اقوى دليل على احساس الناس بمكانة العلماء انهم صاروا يقصدونهم لقضاء حوائجهم ويتوسلون بهم للشفاعة لهم عند اهل الدولة[1].

وهذا الاحترام التي حضى به العلماء في عصر المماليك جعلهم يعتدون بأنفسهم ومكانتهم ويعمدون في وجه الامراء والسلاطين[1].

اهتم المماليك كثيراً بالزراعة والصناعة والتجارة الى جانب الموسوعات العلمية فقد صبوا اهتمامهم بالتجارة بحيث اعطوا اموالهم للتجار حتى يشغلونها لهم في التجاره سراً في هذه الحالة اصبحوا اصحاب تجارة عالمية[1].

فقد اسهمت التجارة في بناء المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك فكانت طائفة التجار ومن المعروف ان مصر قامت بنشاط تجاري مهم وكبير بين الشرق والغرب في ذلك العصر مما ادى الى شراء التجار وجعلهم طبقة ممتازة الى حد بعيد[1].

وقد ادرك سلاطين المماليك هذه الحقيقة واحسوا بها ان طبقة التجار دون غيرها هي المصدر الاساسي الذي عمد السلاطين الى تقريب التجار منهم واصطفوا منهم اصحاباً وهكذا تمتع التجار بأحترام كبير ومكانة بارزة في مختلف المدن والبلاد المصرية على عصر سلاطين المماليك[1].

فأذا ارادوا مدح شخص قالوا عنه انه ((انه من بيت تجاره ووجاهه)) وفي دمياط ابيح للتجار في ذلك العصر من يسر ورخاء كما يبدو ذلك جلياً في قصص ألف ليله وليله ويحكى عن بعض التجار انه بنى دار فصرف عليها خمسين الف دينار.

وزين قاعاتها واروقتها بالرخام المثمن وزخرفها بمختلف النقوش والزخارف على انه يتضح من كلام الشعر ان كثرة الثروه في ايدي التجار جعلت الكثير منهم لا يحافضون على اداب الدين فيجلسون في المساجد قبل الصلوات ويتحادثون في لفو وغفلة كذلك يدعو الشعراني الى التواضع في الحج يلبس الثياب اللائقة ((لا كما يفعل التجار)) ولكن كثرة الثروه في ايدي التجار جعلهم دائماً مطمع سلاطين المماليك فقالوا

في فرض الرسوم عليهم كما اكثروا من مصادرتهم ومن هذه الرسوم ما يؤخذ من التجار عند خروج الجند للغزو فأذا لاح خطر مفاجئ واحتاج السلطان الى الاموال لأعداد الجيوش فليس امامه في هذه الحالة سوى التجار ليقترض منهم ما يحتاج اليه بضمان وشهود[1].

كما حدث سنة 796 هـ او يصادر نصف اموالهم او ثلثها كما حدث سنة 803هـ أو ان يفرض عليهم مبلغاً معيناً يتعاونون في جمعه ودفعه في الحال كما حدث سنة 892هـ. وهكذا بلغ من قسوة هذه المطلوبات الغاشمة ان ادى بعض التجار على انفسهم ان يفسر حكم الله حتى يترجوا مما جم عليه من الغرامات والخيارات وتحاكم الظلمة فيهم[1].

ان ابتزاز اموال التجار الاجانب في مصر وذلك بفرض الغرامات الفادحة عليهم ادى الى تأخر التجارة في مصر[1].

ومن الفئات الاخرى التي تكون منها المجتمع المملوكي هي الجالية اليهودية فقد تظمنه المجتمع المصري في العصر المملوكي جالية يهودية متوسطة العدد فنجد ان برنارد يكتب بعد زيارته لمصر عند مطلع النصف الثاني من العهد المملوكي انه كان في مصر حينذاك حوالي خمسة عشر الف يهودي يشتغلون بمختلف الحرف وخاصة التجارة وقد كان لليهود تحت الحكم المملوكي حرية التعبد في اماكن العبادة الخاصة بهم وممارسة شعائر مذهبهم[1].

بل واقامة احتفالاتهم الدينية بغض النظر عن وجودهم في اقليم اسلامي ما زال ذلك الاقليم يقع تحت سلطة المماليك ويذكر القلقشندي ان اليهود في مصر ينقسمون الى ثلاث طوائف هي:

الربانيون، القراءون والساحره وقد جرت العاده ان يكون الرئيس من طائفه الربانين دون غيرهم وله، الحكم على الطوائف الثلاث.

كما يذكر القلقشندي نسخة توضح برئاسة اليهود من انشاء الفاطمي محي الدين بن الظاهر تنص على ان الاشراف على الطائفة اليهودية يقع ضمن مسؤليات رئيس اليهود الذي كان عليه الاعتناء بشؤنهم الاجتماعية والفصل في قضاياهم القانونية طبقاً لما يقضيه القانون اليهودي[1].

ويبدو ان ثروة مصر واتساع تجارتهم في ذلك العصر اجتذب كثيراً من اليهود من القسطنطينية وبغداد ودمشق وعكا وصور وحلب والاندلس فضلاً عن البلاد الاوربية مثل فرنسا وايطاليا وغيرها كذلك يبدوا ان هؤلاء اليهود والذين استقروا في مصر صارت لهم سيطرة خطيرة.

على النشاط المعرفي والاعمال المالية وقد احتفظ اليهود في مصر بمعابدهم التي عددها المقريزي كما حافظوا على عوائدهم ونظمهم الموروثة وتولى زعامتهم رئيس او حاخام اشرف عليهم بطوائفهم الثلاث الربانين والسامريين والقرائين وتمتع ذلك الرئيس بنفوذ ديني وقضائي كبير في مختلف المشاكل التي تنشأ فيما بينهم[1].

كما ان هناك الكثير من الكنائس اليهودية في القاهرة وبعبارة اخرى لقد عاش اليهود ضمن دولة صغيرة خاصة بهم داخل الدولة المملوكية ومن ثم وجهوا حياتهم وفق الاسلوب الذي يرونه وطبقاً للعادات التي يألفونها.

وهناك ايضاً رحاله اخر يناطق اهل الذمة في العهد المملوكي وهو الراهب يوحنا يثود الذي يذكر في كتابه بأنه كان يوجد اكثر من عشرة الاف يهودي في مصر يعيشون في احيائهم الخاصة ولهم كنائسهم واسواقهم كما يوجد اكثر من عشرة الاف مسيحي من الريان والاقباط الذين ملكو عدد كبير من الكنائس[1].

ويبدوا ان الانتعاش الاقتصادي والنشاط التجاري الذي تميزت به مصر المملوكية في تلك الفترة قد اغرى عدد كبير من اليهود للقدوم والاستقرار في مصر فقدموا من القسطنطينية وبغداد ودمشق وعكا وصور وحلب والاندلس كما قدمو كذلك من البلاد الاوربية مثل ايطاليا وفرنسا وغيرها من المناطق[1].

على النشاط المعرفي كذلك بيدو ان اليهود الذين اقامو في مصر نجحو في السيطرة التامة على الصفقات التجارية واعمال الصيرفه وكل ماله صلة بالنشاط المالي.

ومن الفئات الاخرى هي الجالية المسيحية ولابد لنا بداية الحديث عن الجالية المسيحية في المجتمع المصري في العصر المملوكي الى رهبان دير القدسية كاترين في جبل سيناء والذين اشارو اليهم الراهب يوحنا يثود حينما تناول بالتفصيل رحلته الى جبل سيناء وزيارته لدير القديسة كاترين وقد سبق لنا دراسة وضع هؤلاء الرهبان في الدير وموقف الحكام المماليك منهم[1].

وقد تقسمت الجالية المسيحية الى ثلاث طوائف هم البصاقيه والاقباط والربان الذين كانو يشكلون اغلبية بين الطوائف المسيحية الثلاث واخيراً الملية الا ان اقل هؤلاء ذكراً في المصادر المعاصرة في الغرب هم البعاقية والذين اهملتهم كذلك الدراسات الحديثة للحركة الصليبية رغم وجودهم ضمن السلطنة المملوكية وكان البطرياك هو رئيس الجالية ومن اجل ان يعيش المسيحيون في سلام وامان في ذلك المجتمع الاسلامي فقد حرصو على تنفيذ شروط عهد الخليفة عمر بن الخطاب[83].

وقد اشتغل بعض الاقباط في ادارة مكاتب الحكومة في حين مارس بعضهم التجارة بينما عمل بعضهم الاخر في السلك الكهنوتي كأسقفة ومساوسة كما وجد منهم من عمل في حراثة الارض ومزاولة بعض الاعمال المنزلية في بيوت الاغنياء وعلى الرغم من اننا نقرأ قلياً عن طبيعة حياة الاقباط فأنه من المحتمل انهم مارسو مختلف[85].

انواع الحرف الى جانب خدماتهم في المكاتب الرسمية للدولة والحكومة وقد حافظ الاقباط على تقاليدهم الاجتماعية واغراضهم وتمسكوا بها.

---

[83].جرجي، روايات مصدر سابق، ص2

1

[84] المصدر نفسه، ص33

[85]ماجد نظم السلاطين، مصدر سابق، 77

كما احتفضوا بكنائسهم في القاهرة وباقي الاقاليم المصرية وكذلك حرصوا على تقديم العطايا والهديا للرهبان في الاديره والكنائس بالاضافة الى ذلك فرضت الكنيسة القطبية على تطبيق تقاليدها الدينية كما اعتنى كافة الاقباط خاصة في الوجه الفيلي بممارسة عاداتهم وحمايتها بل انهم استمرا في استعمال لغتهم القيطية فيما بينهم[87].

اما عن الحياة الدينية فالملاحظ ان مصر شهدت في عصر المماليك نشاطاً ديناً منقطع النظير وقد يكون السر في هذا النشاط الديني الكبير هو شعور المماليك انفسهم بأنهم اغراب عن البلاد واهلها مغتصبون للحكم والعرش من اصحابه الشرعين.

لذلك ارادو ان يتخذوا من الدين ورجاله ستار يخفي هذه الحقائق عن اعين المحكومين ويقربهم الى قلوب الشعب مادام المماليك مسلمين مؤمنون بالله ورسوله ويحرصون على اقامة شعائر الدين واحياء سنن الاولين ويعمرون مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً منهم اذا حكام صالحون ولا داعي للتفكير كثيراً في اصلهم وطريقة وصولهم الى الحكم[89].

.

[86]عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965،ص1

.

[87]عبد السيد، حكيم امين ، قيام دولة المماليك الثانية، ط2، القاهرة 1966، ص11-12

.

[88]حسن، علي ابراهيم ، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1995، ص232

وثمة ملاحظة اخرى هي ان جزء كبير من النشاط الديني في عصر المماليك كان موجهاً لخدمة المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي ذلك انه على الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين الايوبي ومن خلفه من سلاطين بني ايوب لمحاربة الشيعة والتشيع في مصر إلا ان الكثير من آثار المذهب الشيعي ظلت قائمة في عصر المماليك[91].

وقد لجأ سلاطين المماليك الى استخدام العنف تليت الشيعة حتى ان الناس في ذلك العصر انهم كانوا اذا اراد ان يكيدوا لشخص دسو عليه من رماه بالتشيع فتصادر املاكه وتنهال عليه العقوبات والاهانة حتى يظهر التوبة من الرفض.

وفي الوقت نفسه حارب السلاطين المماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر فأمر السلطان الظاهر بيبرس 1267م- 665هـ بأشياع المذاهب السنية الاربعة وتحريم

---

[89] ماجد ، عبد المنعم ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الانجلوا المصرية، القاهرة (1964) ص68

[90] زيدان ، جرجي ، تاريخ مصر الحديث، ط2، مطبعة الدلال، القاهرة(1911) ص344

[91] المصدر نفسه، ص345

ما عداها كما امر بأن لا يولي فاطمي ولا تقبل شهادته احد ولا يرشح لاحدى وظائف الخطابة او الامامة او التدريس مالم يكف مقلد لاحد هذه المذاهب[93].

وثمة وسيلة اتخذها سلاطين بني ايوب واتبعهم فيها سلاطين المماليك لمحاربة المذهب الشيعي والحد من انتشاره في البلاد في انشاء المدارس وسبق وان تكلمنا عن اهمية المدرسة من الناحية العلمية ولكن الحقيقة الكبرى لا ينبغي ان تغيب عن اذهاننا هي ان صلاح الدين عندما انشأ اولى المدارس في مصر انما استهدف ان تكون المدرسة قبل اي اعتبار اخر مركز لتدعيم المذهب او الفقه السني وقد راعى هذا المبدأ خلفاء صلاح الدين فأقامو المدارس واشترطوا ان تكون كل منها خاصة بتدريس مذهب او مذهبين من المذاهب الاربعة[95].

حتى كانت المدرسة التي انشأها السلطان الصالح نجم الدين ايوب سنة 1242م/ 640هـ هي اول مدرسة بنيت في القاهرة على المذاهب الاربعة الشافعي و المالكي و

---

[92] زيدان،مصدر سابق، ص345

[93] طقوس، محمد سهيل ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط2، دار النفائس، (القاهرة، 648-923هـ) 1250- 1517م، ص15-16

[94] طقوس، المصدر نفسه، ص15- 16

[95] عاشور، مصدر سابق، ص28

الحنفي والحنبلي واستمرت هذه المدرسة تؤدي رسالتها في خدمة السنة حتى القرن التاسع الهجري الخامس الميلادي على ايام المؤرخ تقي الدين المقريزي[97].

ولم تكن المدارس هي المؤسسات الدينية الوحيدة التي اكسبت المماليك طبعه الديني الخاص بل شهد ذلك العصر اقامة مؤسسات اخرى عديدة مثل المساجد والزوايا وغيرها.

وان كل من المدرسة والجامع في ذلك العصر قاما بنفس الدور في خدمة الدين والعلم لكن الفارق بينهم هو ان المدرسة كما يتضح من اسمها استهدفت اولاً خدمة العلم وجاء نشاطها الديني ضمنياً عن طريق تدريس العلوم الدينية وبالعكس كان الهدف الاول من الجامع هو خدمة الدين واحياء شعائره[99].

---

[96] زيدان، روايات، ص15

[97] ماجد، نظم سلاطين المماليك ، ص65

[98] المصدر نفسه، ص66

[99] طرخان، ابراهيم علي، مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة، (مكتبة النهضة ، 1999)، ط1، القاهرة، ص123

ولكي تدرك مدى الضعف الذي كان عليه المسلمون قبل ان الى ربهم فأعلم ان التتري كان يلقي المسلم في بغداد ليس معه سيف فيقول له قف مكانك حتى احضر السيف لأقتلك فيبقى المسلم جامداً ذليلاً في مكانه حتى يأتيه التتري بالسيف فيقتله به.

لقد قاتل سيف الدين قطز قتالاً عظيماً وقاتل معه الامراء المماليك حتى النصر ووقف قطز يوم عين جالوت وقال لمن يلومه على ذلك خائفاً عليه انني كنت افكر في الجنة اما الاسلام فله رب لا يضيعه ولقد قام قطز بنفس الدور الذي قام به صلاح الدين الايوبي عرف الحقيقة واعلنها الى الناس[101].

بالاضافة الى هذه الاصناف فهناك فئات عديدة ومختلفة في المجتمع المملوكي مثل الباعة والسوقة والغائين والمكارين والمعدمين واشباه المعدمين والامصطلح الذي تستخدمه عادة المراجع المعاصرة للتعبير عن هذه الفئات مجتمعه هو لفظ العوام ولحقت بعض المراجع بالعوام طوائف البلاحية والحرافين والمشاعليه ويبدو استعمال هذه الالفاظ في المراجع المعاصرة انها تعني المعدمين واهل الفساد من الدهماء.

بالاضافة الى هذه الطبقات هنالك طبقات اخرى مثل الفلاحين والاقليات الاجنبية والصناع وارباب الحرب والاعراب وغيرها[103].

---

(100) عاشور،مصدر سابق، ص23

(101)عفيفي، امين ، تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث، ط3، المطبعة العربية، (القاهرة 1954)،ص 137

(102)طرخان، مصدر سابق، ص125

المبحث الثاني:

المرأة في المجتمع المملوكي:

لو اردنا التحدث عن مكانة المرأة في المجتمع المملوكي او عن السكان لوجدنا ان الطابع الاسري او الطابع العام للاسرة الاسلامية كان سائداً في عصر المملوكية لاسيما من حيث مركز الاب ونفوذه على زوجته وابنائه واحترام الزوجة والابناء لرب الاسرة وتطلبت ظروف الحياة والعمل بعض التلطيف من الزوجة ان يقضي الرجل معظم، نهاره في عمله خارج المنزل حتى اذا ما انتهى من عمله عاد عند غروب الشمس ليجد زوجته بدورها في انتضاره بعد ان قضت سحابة النهار في خدمة شؤون المنزل[105].

وكان الناس يتناولون طعامهم وهم جلوس على الارض مع مراعات آداب الطعام او آداب معينة منها الجلوس للأكل على الفخذ الايسر على ان يكون الاكل بثلاثة اصابع فقط مع مراعاته تصغير اللقمة وعدم الكلام اثناء الطعام[107].

---

(103) عاشور، المجتمع المصري ، ص10-11

(104) عاشور، المصدر نفسه، ص18

(105) العريني، الباز، المماليك، ط2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (دمشق- 1967)، ص118

وجرت العادة في ذلك العصر بالا تشارك الزوجة او الابناء رب الاسرة في طعامه بل للرجل طعام خاص وزبده خاصة وكوز خاص به.

وكثرة الولائم المنزلية في ذلك العصر فكل مناسبة من مناسبات الفرح مقرونه بوليمة للاهل والاصدقاء وضعت لهذه المأدب المنزلية اداب وقواعد منها انه يجب على صاحب البيت ان يبدأ بالاكل ابناسا للضيوف ويعزم عليهم ولا يمضي في الاكل حتى اذا شبع الضيوف او كادوا ان يشبعون اخذ هو يأكل في انشراح.

وهناك لابد من وصف المرأة ومركزها وهي سواء في المجتمع المملوكي او المجتمع المصري وتمتعت بمكانة اسمى واهم ما يعتقد كثيرون فالمماليك انفسهم نظروا الى[109].

---

[106] المصدر نفسه، ص119

[107] عاشور، مصدر سابق، ص20

[108] شبيكه ،مكي ، تاريخ شعوب وادي النيل في القرن التاسع عشر، ط2، دار الثقافة، (بيروت-1965) ص58

[109] المصدر نفسه، ص61

نسائهم نظرة ملؤها الاحترام فأضفوا عليهن الالقاب ولم يضنوا عليهن بالاموال الطائلة واحترام المصريون كذلك نسائهم وحافظوا على كرامتهن فأضفو عليهن الالقاب من باب التشريف مثل ست الخلق وست الحكام وست الناس الكل.

اذا اخرجت احداهن الى السوق وكان زوجها مقتدراً فأنه يحضر لها حماراً يقوده مكارى ويتبعها خادم.

اما عن نصيب المرأة في الحياة العامة في عصر المملوكية فكان كبير حتى اننا نسمع عن نساء مثل شجرة الدر قدر لهن ان يلعبن دوراً خطيراً في سياسة الدولة العامة في ذلك العصر وكثيراً ما نقرأ عن زوجة سلطان توسطت بين امراء المماليك لتحل اشكالاً او توسطت لدى زوجها السلطان لرفع المظالم عن التجار وغيرهم من الطبقات الملظلومة[111].

ولم يقتصر نصيب المرأة في الحياة العامة على التدخل في بعض شؤون الدولة وانما شاركت ايضاً مشاركة فعالة في النشاط العلمي والديني في عصر المماليك ويحفظ التاريخ اسماء كثيرات منهن ممن اشتغلت في ذلك العصر بالنحو والفقه والحديث بل حفض الشعر وفي هذه الحالة دائبت كثيرات منهن على التنقل بين الشام ومصر

.

[110]المصدر نفسه، ص64

[111]وجدي ، محمد فريد ، دائرة معارف القرن العشرين، ط1، (دار المعرفة، بيروت،(لبنان- 1964) ص125

ونشأت فقهاء ذلك العصر للسماع من كبار المحدثين والعلماء ولم يأنف بعض الفقهاء في عصر المماليك من الاعتراف بأنهم درسوا على بعض الشهيرات وسمعوا منهن وحصلوا على اجازات منهن.

وظهر في ذلك العصر اقبال بين النساء على مجالس العلم والدين فحرصت كثيرات منهن على الذهاب الى المساجد حيث يجلسن في مكان منفرد بعيد عن الرجال لسماع الدروس الدينية واختار بعض النساء ان يسلكن طريق التصوف[113] فلبسن الخرق المرقعة كما لبسها المتصوفه من الرجال واطلق عليهن الشيخات.

اما عن نشاط المرأة فلاحظ بعض الرحالة الاوربين مثل سانوتو ان نساء مصر في عصر المماليك يتمتعن بقسط واخر من الحرية يسمح لهن بالتغيب عن منازلهن في اوقات كثيرة من النهار دون ان يتعرضن للوم ازواجهن فأذا لم يكن للمرأة حاجة في الذهاب الى السوق لشراء النساء يتناقلن اخبار البيوت والناس.

---

[112] المصدر نفسه، ص126

[113] عاشور، مصدر سابق، ص31

وكثيراً ما خرجت النساء الى الغرافات وشاطئ النيل وغيرها من اماكن اللهو للترويح عن النفس حيث ينكشف ستر الحياء ويختلط النساء بالرجال مما اثار غضب الفقهاء ورجال الدين فنادو بمنع النساء من الخروج على ذلك الوجه[115].

هذا عن نساء المدن اما الفلاحة في الريف فظلت تقوم بدورها في جلب مياه الشرب من الترعة او النهر وخبز الخبز فضلاً عن رعاية اولادها ومساعدة زوجها في حقله[117].

ومن المعروف ان الامراء ومماليكهم لم يحاولوا الزواج من اهل البلاد من المصرين بل اختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم الاتي جلبهن التجار كذلك رسم السلاطين للقضاة والشهود ان لايعقد احد منهم قران مملوك من مماليك السلطان إلا بأذنه[119].

---

[114] ماجد، مصدر سابق، ص135

[115] المصدر نفسه، ص136

[116] شبيكه، مصدر سابق،ص60

[117] المصدر نفسه،ص61

وقد اهتم المماليك بالاوضاع الحضارية من بناء المدارس والمساجد والعمائر حتى يعد عصرهم من ازهى عصور فن العمارة فمبدأ بناء البيوت انطلق من مبدأ منع الاختلاط والغيرة على النساء فتبنى البيوت الطابق الاول للرجال ويسمى اللاحك والسفلى للنساء ويسمى الحرملك ومدخل البيت ينحرف غرباً نحو دهليز ومنه حجرة الضيوف حتى لا يرى الداخل من في وسط البيت وكانت هنالك مداخل خاصة بالنساء فقط وكل هذا من اجل عدم اختلاط النساء بالرجال[121].

اما عن الحفلات التي اهتم بأحيائها المماليك فيمكن تقسيمها الى قسمين حفلات خاصة او عائلية وحفلات عامة او شعبية واول انواع الحفلات المنزلية ما يتعلق بأفراح الزواج وعمد كثر من المصريين الى المبالغة في ذلك النوع من الحفلات تقليداً لما اعتداد ان يفعله سلاطين المماليك في افراحهم[123].

---

(118) عاشور، المصد ر السابق، ص36-37

.

(119)عفيفي ،امين مصطفى ، تاريخ مصر الاقتصادي ، (المطبعة العربية، (القاهرة- 1954) ط3، ص21

.

(120)المصدر نفسه، ص23

.

(121)الحجي، حياة ناصر، العلاقات بين سلطنة المماليك والمماليك الاسبانية، ط1، (الكويت-1980) ص4-5

.

وبدأ الزواج في ذلك الوقت بالخطابة فيقتصدها راغب الزواج لانها تعرف كل مليحه بمصر والقاهره وذلك لانها تتضاهر ببيع الطيب والبخور وغيرها من اللوازم النساء وبذلك يتاح لها دخول البيوت والاطلاع على اسرار الحريم فتستطيع ان تأتي للعريس بالعروس التي تناسبه ولم يكن للفتاة رأي في اختيار شريك حياتها بل ظل الرأي النهائي لوالدها وربما تشاركها امها فإذا تمت الخطبة جاء دور عقد القران في المسجد على ان ينصرف اهل العريس بعد كتابة العقد في موكب كبير او صغير حسب الحال[125].

وجرت العادة وبعد عقد القران يأتي اعداد الشوار ونقله الى منزل العريس وجرت العادة ايضاً ان يكون في ذلك الشوار ثلاث دكك احدها من فضة والثانية من نحاس ابيض والثالثة من نحاس اصفر. وفي ليلة الزواج تقام وليمتان كبيرتان احدهما للنساء

---

[122] عاشور، مصدر سابق، ص41- 42

.

[123]الحجي ، مصدر سابق،ص8

.

[124] الحجي، مصدر سابق، ص9

.

[125]عفيفي، مصدر سابق، ص78

والاخرى للرجال وبعد الطعام يخرج العريس في موكب يحق به الاخل والاحباب قاصداً بين عروسه حيث يبدأ الحفل[127].

يختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء وكثير ما يتباها المدعون والمدعوات بتقديم النقوط الى المغنيات وتقديم الهديا من الشمع والخراف والسكر والارز وغيرها الى اصحاب العريس ومن الواضح ان هذه الهداية كانت تعتبر ديناً لابد من تقديمها على ان ترد في المناسبات المماثلة وفي نهاية الحفلة تنحني العروس اما العريس لتقبل يديه وتقدم له سيفاً تمسكه من طرفه فيتناوله العريس من مقبضه.

ومن الحفلات العائلية الاخرى حفلات الولادة فأذا وضعت الام مولودها اقل عليها النساء يزغردون مع ضرب الدفوف في حين تدوي المزامير والابواق على ابواب المنزل ويتضاعف الفرح في حالة اذا كان المولود ذكراً اذا يتعين على والده في هذه الحالة ان يقيم وليمة مولود ذكر يدعوا أليها الاهل والاحباب ويكثر فيها من عمل اصناف الطعام والحلوى.

اما يوم الاسبوع فيكون الاحتفال بع عظيماً اذا تلبس ام المولود الثياب الجديدة وتطوف بأنحاء الدار في موكب تحيط به الشموع والقابلة امامها تحمل المولود مع

---

(126) المصدر نفسه، ص80

(127) الحجي، مصدر سابق، ص61

اطلاق البخور والقاء الملح وبعض الحبوب يميناً ويساراً لمنع العين والجاف واحتفلت العائلات كذلك بختان الطفل[129].

---

[128] عاشور، مصدر سابق، ص41

[129] الحجي، مصدر سابق ، ص63

المبحث الثالث

شجرة الدر كنموذج لمكانة المرأة عند المماليك:

اضحى المماليك بعد مقتل قوارنشاه اصحاب الحل والعقد وكان من الطبيعي ان يطمع كل امير تتبوء عرش السلطة الشاغر لما وجد على الساحة السياسية الملوك الايوبيون خارج مصر والراجح انهم استاءوا من اقدام المماليك على قتل احد ملوكهم واستئثارهم بالسلطة ومن الطبيعي ان يرى كل منهم نفسه او في نفسه الشرعية لأن يلي السلطة بعد وفات تورانشاه.

واخيراً قرر المماليك حل المشكلة الناجمة عن شغور العرش فأختاروا شجرة الدر ام الخليل بن الصالح ايوب لتولي السلطة[131].

وشجرة الدر الملقبة بعصمة الدين ام خليل تركية الاصل وقيل انها ارمنية كانت جارية اشتراها الصالح نجم الدين ايوب وحظية عنده بمكانة عالية حتى اعتقها وتزوجها وانجبت منه ابنها خليل الذي توفي في 2صفر 648هـ (مايو 1250م) وتولت عرش

---

(130) المصدر نفسه، ص64

(131) عاشور، مصدر سابق، ص33

السلطة في مصر لمدة ثمانين يوماً بمبايعة من المماليك واعيان الدولة وبعد وفاة السلطان الصالح نجم الدين ايوب[133].

ويبدو ان عدة عوامل فرضت نفسها على الساحة السياسية في مصر حتى تم هذا الاختيار اهمها:

4-تنافس امراء المماليك على الزعامة.

5-تطلع الملوك الايوبين في بلاد الشام الى حكم مصر.

6-رجاحة عقل شجرة الدر واطلاعها على الامور الهامة في الدولة حيث كانت تشارك زوجها الراحل في ادارة امور السلطة.

كانت شجرة الدر جارية من اصل ارمني او تركي اشتراها الصالح ايوب وتزوجها لذلك فهي من ناحية الاصل والنشأة اقرب الى المماليك واعتبرها المقريزي اولى سلاطين دولة المماليك الاولى.

والواقع انه توجد ثلاثة اراء تتعلق بنهاية الدولة الايوبية في مصر وبداية دولة المماليك البحرية.

3

(132) المصدر نفسه، ص334

.

(133) الحجي، مصدر سابق، ص61

الاولى: يرى اصحاب هذا الرأي ان معظم توارثته هو اخر الملوك الايوبيون في مصر وان السلطنه او السلطانة شجرة الدر هي اولى السلاطين المماليك.

الثاني: وهناك فئة من المؤرخين ترك ان شجرة الدر هي اخر السلاطين الايوبين في مصر بأعتبارها زوجة الصالح ايوب وقد زالت الدولة الايوبيه في البلد المذكور عندما تنازلت للمعز ايبك الذي اضحى اول ملك من الاتراك في الديار المصرية.

الثالث: يرى فريق من المؤرخين ان المماليك الاشرف موسى الذي نصبه المعز ايبك هو اخر الملوك الايوبين في مصر وكان في العاشرة من عمره ثم حجبه الملك المعز واستقل بالملك فأنقرض الدولة الايوبية من الديار المصرية[135].

قصة حياة شجرة الدر بفواصلها واحداثها المتنوعة صعب تخيلها حتى انها لو صنعت فيلم لاتهمه البعض ببعده عن الواقعية او انه مجرد ضرب من الخيال يستخف بعقل المشاهد فبعد ان كانت جارية تباع وتشتري ها هي تحتل عرش مصر وتصبح ملكة بل انها وضعت لوس التاسع اكبر قادات العالم في الاسر وتعقد معاهدة معه ولكن جنون السلطة والمال وعضمتهم جعلها تنسى انها امرأة وتفقد انسانيتها فملأها الشر

---

(134) عاشور، مصدر سابق، ص336-338

(135) الحجي، مصدر سابق، ص6

وسيطر عليها حتى انها دبرت لقتل زوجها ولكن القدر كان لها بالمرصاد فلاقت نفس المصير.

فقد كانت لها مكانة خاصة عند نجم الدين الايوب فبالرغم من جمالها فهي ايضاً شديدة الذكاء فكانت مع زوجها عندما تولى بلاد الشام وانتقلت معه الى مصر.

وعند وفاة ابنها صغيراً حزنت عليه حزناً شديداً وكانت ذا عقل وحزم وتدبير في شؤون البلاد عند سفر زوجها توفي السلطان نجم الدين ايوب كانت فيه القوات الصليبية تزحف اتجهيز القوات المصرية المرابطة بالمنصوره وكان خبر وفاة السلطان في ذلك الوقت كفيل بأن يقلل من عزيمة الجند وتضعف معنوياتهم فلجئت شجرة الدر الى حيلة وهي اخفاء خبر موت السلطان في ذلك الوظع وامرت بنقل الجثة سراً في سفينة الى قلعة الروضة بالقاهرة[137].

وكانت تدخل الطعام والادوية واذا سأل عليه قالت ان السلطان مريض وكانت الاوراق الرسمية تخرج يومياً وعليها توقيع السلطان[139].

2
[136] عاشور، مصدر سابق ، ص246- 249

.
[137]الحجي، مصدر سابق، ص6

3
[138] عاشور، مصدر سابق ، ص175

.

وقد تولت شجرة الدر ترتيب امور الدولة وادارة شؤون الجيش في ميدان القتال وعهدت للامير فخر الدين بقيادة الجيش وفي الوقت نفسه ارسلت الى تورانشاه ابن الصالح ايوب تحثه على القدوم فغادره حصن كيفا الى مصر ليتولى السلطنة بعد ابيه.

وفي الفترة ما بين موت السلطان الصالح ايوب ومجيء ابنه تورانشاه في 23 ذي القعدة 648هـ 27 فبراير 1250م وهي فترة تزيد على ثلاثة اشهر نجحت شجرة الدر بمهارة فائقة ان تمسك بزمام الامور وتقود دفة البلاد وسط الامواج المتلاطمة التي كادت تعصف بها ونجح الجيش المصري في رد العدوان الصليبي الحاق خسائر فادحة بالصليبين وحفظت السلطنة حتى تسلمها تورانشاه الذي قاد البلاد الى النصر.

بعد النصر تنكر السلطان الجديد شجرة الدر بدلاً من ان يحفظ لها جميلها بعث يتهددها ويطالبها بمال ابيه فكانت تخبره بأنها انفقته في شؤون الحرب وتدبير امور الدولة فلما اشتد عليها ذهبت الى القدس خوفاً من غدر السلطان وانتقامه ولم يكتف تورانشاه بذلك بل امتد خنقه ليشمل امراء المماليك اصحاب الفضل الاول في تحقيق النصر العظيم والحاق الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة وبدأ يفكر بالتخلص منهم[141].

---

(139) عاشور، مصدر سابق، 250

(140) رقلمه ،انور، المماليك في مصر، مطبعة المحله الجديدة، (القاهرة بدون سنة طبع)، ص45

(141) عاشور، مصدر سابق، ص22

فقد اهمل تورانشاه الامراء الاكابر اهل الحل والعقد وقدم الارذال فضلاً عن انهماكه بالملذات فأتفق المماليك فضربه بيبرس بالسيف سنة 648 اثناء وليمة امامها لحم واصبح المماليك اصحاب السلطة الفعلية في البلاد[143].

باشرة السلطانة شجرة الدر سلطتها استناداً على امومتها على ابن متوفي من ابناء السلطان ايوب واعتماد تأييد المماليك الصالحية لها غير ان المسلمين لم يألفوا ان يتولى امرهم امرأة فضلاً عن حرص الايوبين على عدم ترك مصر تفلت من ايدهم فأقام المماليك اميراً منهم وهو ايبك التركماني في منصب السلطنة لما اشتهر به بينهم من التدين والكرم وجود الرأي[145].

وهناك رواية اخرى عن وفاته عندما طالب شجرة الدر بمال ابيه واخبرته بأنها انفقته في شؤون الحرب وهربت منه بعدها اخذت تدبير مؤامرة لقتله وقامت بالاتصال مع انصاره من المماليك المعادين لتورانشاه وامرتهم بقتله وفي معسكر في فارسكور

---

(142) رقلمة، مصدر سابق، ص47

(143) عاشور، مصدر سابق، ص175- 178

(144) عاشور، مصدر سابق ، ص 23

(145)الحجي، مصدر سابق، ص18

هاجموه مما جعله يلقي نفسه في البحر من فوق برج عالي كانو قد اشعلو فيه النار ثم رموه بالسهم وهناك في عرض البحر لقى حتفه حريقاً جريحاً وايضاً غريقاً وقد قيل ان جثته بقيت على شط النيل ثلاثة ايام حتى دفنت مكانها وبموته انتهى حكم الدولة الايوبية في مصر بعد حكم دام 81سنة ليبدأ بعد ذلك حكم المماليك وقد بايع الامراء السلطانة شجرة الدر في مصر 648هـ وفي هذا الاثناء كان الامراء المصريون يحتفلون بفشل الحملة حملة لويس التاسع على مصر وانهزامها وهكذا تولت شجرة الدر الحكم[147].

قد تعجب المرأ عندما يرى ان سلاطين المماليك تركوا انفسهم واختاروا شجرة الدر لتتولى شئون الحكم وهم الابطال الصناديد والقادة الذين مشى النصر في ركابهم وقد تفشى اسم شجرة الدر ونقش على السكة بالعبارة الاتية ((المعتصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل امير المؤمنين والجدير بالذكر ان شجرة الدر لم تكن اول امرأة في العالم الاسلامي فقد سبق ان تولت رضية الدين سلطنة دلهي واستمر حكمها اربع سنوات (634- 638هـ) الموافق 1236- 1240م) وحكمت اروى بنت احمد

---

[146] الحجي، مصدر سابق، ص20

[147] عاشور، مصدر سابق ، ص170

الصليحي من سلالة بنو صليح اليمن من تاريخ (492- 532هـ) الموافق (1098-1138م)[149].

وقد خطب الشيوخ لشجرة الدر في المنابر وكذلك الخطباء وقد اشتهرت شجرة الدر بالدهاء حتى وصفها ابن اياس بأنها صعبة الخلق شديدة البأس ذات شهامة رائدة وحرمة واخره.

لم يكن الشعب المصري عنده فكرة ان تحكمه امرأة فشعرت بذلك فأخذت في نقض الظرائب وعملت الى التقرب الى اهل الدولة ومنهم الرتب والاقطاعات واتفقت مع لويس التاسع الذي كان اسيراً بتسليم دمياط ودفع فدية له ولمن معه من اسرى تقدر بثمانية الف دينار.

ويتعهد بعدم العودة مرة اخرى الى السواحل المصرية ولكن وجودها اثار ضجة في انحاء الجمهورية المصرية واعترفت الجماهير بأن تقوم بحكمه امرأة حتى بعثو للباب العالي قائلين ان كانت الرجال عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجالاً[151].

---

[148] رقلمة، مصدر سابق، ص47

[149] عاشور، مصدر سابق ، ص171

[150] طقوس، مصدر سابق ، ص35

على الرغم من بعض الاعمال الداخلية والتسهيلات الا انها لم تأتي بنتيجة لأن المصرين عموماً لم يتقبلو بحكم او وجود امرأة في السلطنة والمسلمين لم يعتادوا في تأريخهم ان سلموا زمام امورهم لأمرأة[153].

ويبدو ان السلطانة شعرت بهذا الحرج فحرصت على ان لا تبرز اسمها مكشوفاً في المناشير فكانت توقع بأسماء وتعابير تمت لها بالصلة مثل ولدة الخليل وجعلت صيغة الدعاء على المنابر "احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ام الخليل المستعصمية صاحبت الملك الصالح ونقشت اسمها على السكة في ضيغة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الخليل امير المؤمنين

اما الخطباء فكانو يدعون لها في دعاء يوم الجمعة على المنابر بصيغة اللهم احفظ وادم سلطانة ست الرفيع والحجاب المنيع ملكة المسلمين والدة الملك خليل" وبعبارة احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ام خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح[155].

---

(151) المصدر نفسه، ص37

(152) طقوس، مصدر سابق ، ص35-36

.

(153)عاشور، مصدر سابق، ص17

2

(154) المصدر نفسه، ص174

وقد هدفت ان تضعي الصفة الشرعية على حكمها لذلك كانت تتقرب من الخلافة العباسية صيغاً وتتمسك بلقب "المستعصمية" اشارة الى صلتها بالخليفة العباسي المعتصم واحياناً تتمسك بلقب ام خليل الملك الصالح اشارة الى صلتها بالبيت الايوبي والملك الصالح نجم الدين ايوب بوجه خاص[157].

قامت المظاهرات في القاهرة وحدثت اضطرابات عديدة مناهضة لحكمها بعد ان اتهمها المعارضون بالتساهل مع الصليبين وحملوها مسئولية اطلاق سراح الملك الفرنسي لويس التاسع الذي ما ان اطلق سراحه حتى ذهب الى عكا ليواصل نشاطة الصليبي في بلاد الشام وعمد القيمون على الدولة الى غلق ابواب مدينة القاهرة للحلول دون تسرب انباء الاضطرابات الى الخارج[159].

---

[155] عاشور، مصدر سابق، ص173

[156] العريني، مصدر سابق، ص45-47

[157] المصدر نفسه، ص49

[158] طقوس ، مصدر سابق، ص85

[159] المصدر نفسه، ص86

غير ان الظروف لم تكن مواتية لان تستمر شجرة الدر في الحكم طويلاً على الرغم مما ابدته من مهارة وحزم في ادارة شئون الدولة وتقربها الى العامة واغداقها الاموال والاقطاعات.

على كبار الامراء فلقيت معارضة شديدة داخل البلاد وخارجها وخرج المصريون في مظاهرة غاضبة تستنكر جلوس امرأة على عرش البلاد.

وعارض العلماء ولاية المرأة الحكم وقاد المعارضة العز بن عبد السلام لمخالفته جلوسها على العرش للشرع.

وفي الوقت نفسه ثارت ثائرة الايوبيون في الشام لمقتل تورانشاه واغتصاب المماليك للحكم بجلوس شجرة الدر على سدة الحكم ورفضت الخلافة العباسية في بغداد ان تقر صنيع المماليك فكتب الخليفة المعتصم اليهم ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير اليكم رجالاً.

ولم تجد شجرة الدر ازاء هذه المعارضة الشديدة بدلاً من التنازل عن العرش للامير عز الدين ايبك اتايك العسكر الذي تزوجته وتلقب باسم الملك المعز وكانت المدة التي قضتها على عرش البلاد ثمانين يوم واذا كانت شجرة الدر قد تنازلت عن الحكم والسلطان رسمياً وانزوت في بيت زوجها فأنها مارسته بمشاركة زوجها مسؤلية الحكم وخضع لسيطرتها فارغمته على حجر زوجته الاولى ام علي وحرمت عليه زيارتها

هي وابنها وبلغ من سيطرتها على امور السلطان ان قال المؤرخ الكبير ابن تغري بروي انها كانت مستولية على ايبك في جميع احواله ليس له معها كلام[161].

واخيراً شعر ايبك بسيطرتها وكره ذلك فأنتفض اخيراً لنفسه وانقلب عليها وهددها بالزواج عليها مما جعلها تجن بجنونها وتفكر بالتخلص منه فبعثت برسالة للمناصر صلاح الدين ملك سوريا وحلب وتطلب منه قتل زوجها وتسليمه عرش مصر ولكن لم يجبها وظن في الامر خدعة وعلم عز الدين ايبك بتفاصيل هذه الرسالة فعزم على قتلها ولكن شجرة الدر سبقته ودبرة مؤامرة لقتله فأخذت ترف له وتدلك عليه واكدت له انها سوف ترضخ لجميع مطالبه وسوف تكون طوع بيده وطلبت منه ان يقوم بزيارتها في قصرها بالقلعة[163].

وهناك وبين رياش وحرير وطعام لذيذ وشراب اثير كانت تحل اليه من الف ليلة وليلة واخيراً وعندما حاول التقرب منها طلبت منه ان يقوم بالغطس في المسبح حتى

---

(160) العريني، مصدر سابق،ص65

(161) المصدر نفسه، ص66

(162) طقوس، مصدر سابق، ص40

(163) طقوس، مصدر سابق ، ص40

يزيل عنه عناء السفر واشعلت البخور الممزوج بعطر الصندل حتى وانه من كثافة الدخان امتنعت الروئية ووجوده بالمسبح انقض خمس من الغلمان على عز الدين ايبك وقتلوه في المسبح سنة 655هـ.

وفي الصباح اشاعت شجرة الدر ان عز الدين قد مات اثناء نومه لكن انصاره لم يصدقوا ودخلو القصر وحققوا من الامر حتى علموا بحقيقة الامر واعترف الغلمان الخمسة على ذلك وعلى شجرة الدر وتم اعدامهم ولاذت شجرة الدر بالفرار على يد بعض المماليك الى البرج الاحمر بالقلعة ومسك الحكم عز الدين علي ايبك الذي كان عمره خمس عشر سنة وعين قطز اثيابكاً له واول شيء امر به هو قتل شجرة الدر [165].

وقد اوكلت مهمة التخلص من شجرة الدر الى امرأة عز الدين ايبك التي امرت جواريها بقتلها بعد ايام قليلة والقو بها من فوق القلعة بعد ما تم القبض عليها ونقلت الى زوجة عز الدين ايبك التي طلبت مقتلها والتخلص منها بنفسها وكانت تحترق شوقاً

---

[164] جرجي، زيدان، روايات تاريخ العرب والاسلام، شجرة الدر، ط1،(دار صادر للطباعة والنشر- 1998)، ص17

[165] جرجي، مصدر سابق، ص28

للتخلص منها فهي سرقت منها زوجها وبعدته عنها فأمرت بضربها بالقباقيب الى ان ماتت وقامو برميها من فوق القلعة[167].

وهكذا انتهت حياتها على هذا النحو بعد ان كانت ملئ الاسماع والابصار وقد اثنى عليها المؤرخون المعاصرون لدولة المماليك فبقول ابن تغري بردي عنها وكانت خير دينة رئيسة عظيمة في النفوس ولها مآثر واوقاف على وجوه البر معروفة بها لقب السلطان[169].

وبعد موتها تركت في الخندق بقرب القلعة وهي لا ترتدي سوى سروال وقميص وبقيت بالخندق مدة ايام وثم دفنت بقبرها قرب المشهد النفيس بالقاهرة واحتفالاً بموتها صنعت زوجة ايبك حلوى من الرقاق واللبن ومحلاة بالسكر ووزعتها على الشعب والذي كان لا يعلم اسم لهذه الحلوى واطلقو عليها اسم ام علي نسبته لها ويقال ان شجرة الدر عندما ايقنت بموتها جمعت مجوهراتها ووضعتها في هاون من النحاس وقامت بأتلافها

---

[166] ماجد ، مصدر سابق، 75

[167] ماجد ، مصدر سابق، 76

[168] جرجي، روايات مصدر سابق، ص2

1

[169] المصدر نفسه، ص33

وبالرغم من ذلك فأن شجرة الدر كانت معروفة بأعمال الرد والعطف على الفقراء والمساكين.

وهكذا انتهت حياة شجرة الدر وكانت نهاية مأساوية وكانت هي السبب الرئيس فيها[1].

---

[170] ماجد نظم السلاطين، مصدر سابق، 77

الخاتمة

من خلال ما تقدم نستطيع القول بأن عصر المماليك كان عصراً يحيط به الغموض بعض الشيء على الرغم من أنني لم اتحدث عن المماليك او عصر المماليك بشكل مفصل واوسع إلا انني وجدت هذا العصر كان عصراً ايجلبي اكثر من ما هو سلبي بالنسبة لمصر المملوكية وكان لهذا العصر دور كبير في مجرى الاحداث التي مرت بمصر.

فالمماليك كانو نوع من الرقيق الذين يجابونهم اثناء التجارة فأقتنى منهم سلاطين المملیك في مصر واشتروا منهم اعداداً وكذلك استخدم العباسيين المماليك في العصر العباسي واصبحوا يحرسون القلاع وقد سكنوا الابراج لذلك سمو بالبرجية وكان لهم تأثير على مصر من الناحية الايجابية.

اما عن المجتمع المصري فكان مرلف من طبقات عديدة اهمها المماليك واليهود والمسيح والاعراب والتجار والسلاطين والفلاحين والمعممين واصحاب الحرف والاقليات الاجنبية وكا هذه الطبقات لم تواجه اي صعوبات مثلما واجه طبقة الشيعة من مصاعب ومتاعب وعقوبات ومحاولة سلاطين المماليك التخلص منهم إلا انهم لم يستطيعوا.

وكذلك كان للمرأة دور كبير هي المجتمع المصري في عصر المماليك بحيث كانت تتمتع بصلاحيات واسعة ولها دور كبير في المجتمع المملوكي وهي كانت تشارك زوجها في اعمال البيت وخارج البيت إلا انها لم تشارك بالحروب وقد اعتلى بعضهن الحكم وتسلمت الحكم الفترة من الزمن بحيث لعباً دور كبير في الاحداث السياسية في

مصر ومن ابرزهن شجرة الدر التي كانت جارية اشتراها السلطان نجم الدين ايوب ثم اعتقها وتزوجها ثم انجبت له ولد اسمه خليل لذلك سميت او لقبت بأسم خليل المستعصمية ام خليل وقد استمرت في الحكم ثمانين يوماً كانت من اجمل ايام هو في روايتها الا انها لعب الشيطان في عقلها وفكرة بالتخلص من زوجها إلا انه احس بها وهربت الى القصر ثم طلبت منه ان يحضر الى القصر وحضر وكانت له انها سوف تلبي جميع مطالبه وطلبت منه ان يغطس بالمسبح ليذهب عنه عناء السفر وبالفعل تم ذلك واذا بخمسة اشخاص ينقضون عليه ويقتلونه وقالت انه توفى اثناء نومه ولكن انصاره لم يصدقو بل تحققو من الامر وعرفو حقيقة وتم القاء القبض على الاشخاص الخمسة واعترفوا عليها تم اعدامهم وكذلك شجرة الدر تم القاء القبض عليها وامرت ام علي التي هي زوجة زوجها بقتلها ضرباً بالقباقيب حتى توفية وتم رميها من فوق القلعة ودفنت في نفس المكان وهكذا انتهت حياة شجرة الدر التي كانت هي السبب الرئيس في مقتلها.

قائمة المصادر والمراجع

13- علي ابراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1995، ص232.

14- جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث، ط2، مطبعة الدلال، القاهرة، 1911، ص344.

15- .....، روايات تاريخ العرب والاسلام (شجرة الدر)، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، القاهرة، 1998، ص15.

16- محمد سهيل طقوس، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط2، دار النفائس، القاهرة، 648-923هـ/ 1250- 1517م، ص15-16.

17- سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965، ص2.

18- .....، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962، ص10-11.

19- .....، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965، ص157.

20- امين مصطفى عفيفي، تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث، ط3، المطبعة العربية، القاهرة، 1954، ص21.

21- حياة ناصر الحجي، العلاقات بين سلطنة المماليك والمماليك الاسبانية، ط1، الكويت، 1980، ص4-5.

22- محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ط1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ت، ص125.

23- الباز العريني، المماليك، ط2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، دم، 1967، ص45- 47.

24- مكي شبيكه، تاريخ شعوب وادي النيل في القرن التاسع عشر، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1965، ص2-9.